القيم الإنسانية ومناهج المفسرين

إلمامه بالمناهج التفسيرية :

نزل القرآن الكريم على رسول الله ﷺ ليبلغه لقومه خاصة وللناس كافة .

وهنا مرحلتان : مرحلة نزول جبريل بالقرآن على قلب رسول الله ﷺ مصداقاً لقوله تعالى :

﴿وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ [1] .

ومرحلة تبليغ الرسول ﷺ ما نزل عليه إلى أمته تنفيذاً لقول الله سبحانه ﴿ يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾ [2] .

ولقد كان الرسول ﷺ فى المرحلة الأولى حريصاً على حفظ القرآن فور تلقيه من الوحى ، فكان يلهج بلسانه ، ويردد ما يسمع حتى لا يضيع منه شئ ، وحتى يستوعبه فلا يشرد منه معنى .

ولكن لأن القرآن قد نزل ليخلد بين العالمين ، وليكون كتاباً لخاتم الرسالات ، فقد طمأن الله نبيه إلى أنه يتكفل بحفظه كما يتكفل ببيانه فقال ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ... ثم إن علينا بيانه ﴾ [3] .

فكأن الوحى لم يتوقف عند نزول القرآن ، وإنما تكفل أيضا ببيان هذا القرآن وتوضيح معانيه للرسول حتى يتيسر تبليغه بعد ذلك للناس .

ومن ثم فإن المرحلة الثانية – هى مرحلة التبليغ – تبدأ اعتمادا على المرحلة الأولى ، حيث يحمل الرسول القرآن إلى أمته ويتكفل هو – ﷺ – ببيان ما أنبهم من آياته حيث يقول تعالى ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون ﴾ [4]

---

[1] الشعراء : ١٩٢ – ١٩٤ .

[2] المائدة : ٦٧ .

[3] القيامة : ١٦ – ١٩ .

[4] سورة النحل : ٤٤ .

وبيان القرآن وتبليغه للناس واضحاً ييسر لهم أمر التدبر فيه ، كما يهيئهم للامتثال لأحكامه ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب ﴾ [1] .

فإذا لم يتدبروه وقد نزل بلسانهم ، ووضحت معانيه بواسطة نبيهم فإنه يلوم المفكرين منهم بمثل قوله ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ [2] .

وإذا فهموه وتدبروه فقد لزمتهم الحجة ، وقد وجب عليهم ان يستقبلوا أحكامه بالطاعة وأوامره بالامتثال .

وإذا كان الرسول ﷺ قد تولى - فى مرحلة التبليغ - بيان بعض المعانى القرآنية التى غابت على الناس ، فلقد كان فى هذا البيان يستلهم الوحى ، ويتوقف أحياناً حتى يأتيه البيان .

ولقد روى عن عائشة قولها :"" ما كان رسول الله ﷺ يفسر من كتاب الله إلا آيات معدودة علمه إياهن جبريل "" . المقصود بهذا الحديث أنها الآيات التى لا سبيل إلى معرفتها إلا بالوحى ، والتى قال الله فى مثلها ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ فتفسيرها إذن تفسير توقيفى لا مجال لاجتهاد البشر فيه ، ومن أمثلة ذلك أصحاب الكهف ، وقصة العبد الصالح مع موسى و أخبار ذى القرنين ويأجوج ومأجوج وغير ذلك .

أما تفسير المعانى القريبة التى يسهل بيانها ، أو تعتمد على استقراء المقاصد الشرعية من مجموع آيات القرآن ، فإن الرسول ﷺ يتكفل ببيانها دون حاجة لنزول الوحى فيها .

وحين يجئ دور الصحابة - وهم أقرب الناس إلى الرسول - فى فهم القرآن وفى تفسيره ، فإن بعضهم يتميز على البعض الآخر بفهم الآية و الآيتين . فلقد قيل إن عليا - رضى الله عنه - ذكر جابر بن عبد الله فوصفه بالعلم فقال رجل : جعلت فداك ، تصف جابراً بالعلم وأنت أنت ؟ قال إنه كان يعرف تفسير قوله تعالى :

---

[1] سورة ص : ٢٩ .

[2] سورة محمد : ٢٤

﴿ إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾ [1] .

فكأن علياً يعرف فضل جابر وعلمه لمعرفته معنى هذه الآية .

التحرج فى تفسير القرآن :

ومن حيث أن القرآن يترل على رسول الله ﷺ وحياً من السماء ، ومن حيث أن الرسول كان يتلقى تفسير بعض المعانى بوحى آخر ، أو يفسر بعض المعانى بما رآه قريباً من دلالته الشرعية المأخوذة من مجموع الاتجاه التشريعى ، فلم يكن للصحابة إذن مجال واسع لهذا التفسير .

وإذا عرض لأحدهم موقف يتطلب القول فى القرآن فإنه يتردد أن يقول فيه برأيه فلقد سئل أبو بكر عن معنى آية فى القرآن فقال : " أى سماء تظلنى ، وأى أرض تقلنى إذا أنا قلت فى كتاب الله ما لا أعلم !! .

وواضح من ذلك أن أبا بكر - رضى الله عنه - يتهيب أن يقول فى القرآن لا بما لا يعلم فقط بل ما لم يؤثر فيه قول الرسول ﷺ .

كما أن عمر - رضى الله عنه - قرأ على المنبر قوله تعالى ﴿ وفاكهة وأبا ﴾ فقال : هذه الفاكهة قد عرفناها ، فما الأب ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال : إن هذا لهو التكلف يا عمر .

أى أن السؤال عن مثل هذا اللفظ غير المفهوم يدخل فى باب التكلف ، لأنه - حتى إن فهم - فإنه لا يعود على قضية الإيمان بشئ كبير .

كما يندرج تحت ذلك أيضا ما روى أن رجلاً سأل ابن عباس عن يوم ﴿ كان مقداره خمسين ألف سنه ﴾ ؟ قال له الرجل : إنما سألتك لتحدثنى ، فقال ابن عباس : هما يومان ذكرهما الله فى كتابه ، الله أعلم بهما ، فكره أن يقول فى كتاب الله ما لا يعلم [2] .

---

[1] القصص : ٨٥ .

[2] أنظر مقدمة ابن كثير على تفسيره .

وهذه المواقف وغيرها كثير تدل على توقف الصحابة عند المأثور عن رسول الله فى توضيح القرآن ، وتحرجهم فى القول بالرأى خشية الخطأ أو إخراج القرآن عن مدلوله ومعناه .

تفسير القرآن بالمأثور :

التفسير المأثور يعتمد على ما اثر عن الرسول والصحابة من أقـــوال فى تفســير لبعض آيات القرآن ولقد كانت هذه الأقوال تصدر من الرسول أو من صحابته رداً على سؤال أو توضيحاً لمعنى قرآنى يحيطه بعض الإبهام .

والاعتماد على هذا النوع من التفسير كان ينبغى أن يكون هو الأصل فى تفسير القرآن ، إذ أن الرسول ﷺ كان فى حياته هو المصدر الأساسي للتفسير وكان صحابتـــه يسألونه عن معنى الآية فيجيبهم بناء على ما أطلعه الله على علم بالمعنى المراد مصدقاً لقوله سبحانه ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ﴾ [1] . أو كان يجيبهم بما يراه هو حتى يترل عليه الوحى فيثبت إجابته أو يصححها .

وكان التفسير بالمأثور عن الصحابة أيضا مأموناً لأنه راجع فى النهايـــة إلى مـــا عرفوه عن الرسول المؤيد بالوحى .

وقيمة هذا النوع من التفسير أنه كان يرجع إلى أسباب النزول ، فتكون الآيـــة مرتبطة بواقعة معينة ، وتكون هذه الواقعة بعداً يحدده المقصود منها دون الاقتصار علـــى بعدها اللغوى أو معناها الدلالى .وغالباً ما يكون هذا اللون من التفسير بالمأثور مما لا مجال لإعمال الرأى فيه .

وحينئذ يكون فى حكم المرفوع إلى رسول الله ﷺ ، لأن الصحابى لا يقـــول فى هذه المسائل برأيه.

ومن هنا يكون هذا القسم من التفسير مما يجب الأخذ به ، ولا يجوز رده اتفاقاً

وأما إذا كان تفسير الصحابى مما يكون للرأى فيه مجال ، ومما يعتمـــد فيه قول

---

[1] النســـــاء : ١٠٥ .

الرسول ، فإنه يظـــــل موقوفا على الصحابى نفسه ، وينسب الرأى إلى قائله ولا يتعداه إلى غيره .

وحين ذلك تختلف الاتجاهات فى الأخذ عن قول الصحابى ورأيه فى القرآن ، من اعتمد قوله ورأيه وأخذ عنه رأى أن الصحابى قريب العهد برسول الله ﷺ ، وأنه يحتمـــل أنه سمع منه وتأثر به ، فهو حتى إذا سر برأيه فرأيه أقرب إلى الصـــواب ، لأن الصحابـــة أدرى الناس بكتاب الله ، ومن لم ير الأخذ عن الصحابة فى التفسير ، فلأنهم لما لم يرفعوه إلى الرسول فقد علم أنهم اجتهدوا فيه ، والمجتهد يخطئ ويصيب والصحابة فى إجتهادهم كسائر المجتهدين [1] .

أما أخذ المفسرين عن التابعين ، فقد ذهب كثير من العلماء إلى الامتناع عن ذلك لأن التابعين ليس لهم سماع من رسول الله ﷺ .كالصحابة ، ولأنهم لم يشاهدوا القرائـــن والأحوال التى نزل عليها القرآن فيجوز عليهم الخطأ فى فهم المراد من النص القرآنى [2] .

ومن هنا قد يدخل التفسير فى منعطف غامض ، وتدخل إليه روافد غريبة عـــن مساره ، وتبعده عن الغرض المراد منه .

ولقد كثر الوضـــــــع فى التفسير بالمأثور ، حيث اختلط الصحيح بـــالعليل من الروايات .

ولقد روى أن أبا عصمة نوح بن أبى مريم المروزى كان يضع الأحاديث فى فضل القرآن ، ويدعى أنه يفعل ذلك حسبة فسئل : من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس فى فضل القرآن سورة سورة ؟ فقال : إنى رأيت الناس أعرضوا عن القرآن ، واشتغلوا بفقه أبى حنيفة ، ومغازى محمـــــد بن إسحاق ، فوضعت الحديث حسبة ، فكأن (النيـــات الحسنة) كانت تدخل أحيانا فى وضع الحديث وفى تفسير القرآن فتكون النتيجة الســـيئة أنها قالت على الرسول ما لم يقله ، وأدخلت على القـــرآن مـــا لم يحتملـــه ، كمـــا أن

---

[1] انظر : د / محمد حسين الذهبي . علم التفسير : ٢٦ .

[2] الســـــابق : ٣٢ .

الإسرائيليات قد دخلت أيضا فى تفسير القرآن ، وبدأ ذلك منذ عصر الصحابة ، وانتشر فى عهد التابعين ، وشغف الناس بهذه الإسرائيليات فالصقوها بالقرآن وإن كانت بعيدة عن معانيه ومراجعه .

كما تهاون كثير من الرواة فى الرواية ، فلم يحصلوها برواتها واختصروا الأسانيد أو حذفوها ونقلوا الأقوال غير منسوبة إلى قائليها [1] .

ومن هنا تسرب الشك فى التفسير بالمأثور ، لأنه إن بدأ سليما نقيا مأخوذا عن الرسول أو عن صحابته ، فقد انتهى إلى أن تسرى فيه روايات الزنادقة من اليهود والفرس ومسلمة أهل الكتاب .

وكان أكثر هذا الدس فى قصص الرسل مع أقوالهم وما يتعلق بكتبهم ومعجزاتهم (كأصحاب الكهف ومدينة إرم ذات العماد وسحر بابل ، وفى أمور الغيب من أشراط الساعة وقيامتها وما يكون فيها وما بعدها ، ولذلك قال الإمام أحمد : ثلاثة ليس لها أصل : التفسير ، والملاحم ، والمغازى)[2] .

وكان من نتائج هذه الجرأة على القرآن والدس عليه من الآثار المتروكة والآراء الغريبة مما ليس فيه ، أن أصبحت (صنعة) التفسير عبئا على القرآن ، لا وسيلة إلى توضيحه .

ودخل إلى هذه (الصنعة) من ليس أهلا لها ، فأدخلوا على التفسير الصحيح ما أفسده من الخرافات والأساطير ، وأخرجه من مجال الروايات الصادقة إلى مجالات الوضع والأباطيل.

تفسير القرآن بالرأى :

يقصد بتفسير القرآن بالرأى معنيان :

---

[1] د . محمد حسين الذهبي (المصدر السابق) ٤٣ -٤٦ .

[2] تفسير المنار : ٩/١ .

المعنى الأول :

إعمال الرأى أو العقل فى فهم القرآن وتأويل آياته تأويلا يتفق مع الإتجاه الكلى للشريعة وعدم التناقض مع أدلتها المقطوع بها ، ويتجه العلماء إلى جواز هذا اللون ، لأن الله سبحانه يدعونا إلى التدبر فى فهم القرآن ، واستيعاب معانيـــه ومراميه فى مثل قوله ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ [1] . وقوله ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبـــارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب﴾ [2] .

كما ان الرسول ﷺ قد دعا لابن عباس فقال : " اللهم فقهه فى الدين وعلمـــه التأويل " . فقد عطف الرسول العلم بالتأويل على الفقه بالدين ، وكلاهما مما يستخدم فيه العقل ، ويعتمد على الرأى بإستخدامه الأدلة الشرعية المعتبرة فى أصول الدين .

وإذا كان الإجتهاد سائغا فى إستنباط أحكام الشريعة بوجه عام ، فإن اســتخدام الرأى من أصحاب الرأى يكون جزءا من الإجتهاد العام ، ويكون كذلك سائغا فى تفهم الاتجاهات العامة لآيات القرآن الكريم وإلا لتعطل كثير من الأحكام الشرعية المستنبطة من القرآن .

وفى هذا الاتجاه كثير من مؤلفات المفسرين من أشهرها كتاب القرطبى (الجامع لأحكام القرآن) وكتب أحكام القرآن للجصاص وابن العربى وألكيا الهـــراس ، ومعـــانى القرآن للفراء ... وغيرهم .

ويدخل تحت هذا المعنى المباح أيضا أن يفسر اللغويون لغة القرآن ، والنحويـــون نحوه ، والفقهاء معانيه ... وأن يقول كل واحد بإجتهاده المبنى على قوانين العلم والنظر وإن القائل على هذه الصفة لا يكون قائلا لمجرد رأيه وهواه [3] .

أما المعنى الثانى :

---

[1] سورة محمـــد : ص ٢٩ .

[2] ســـورة ص : ٢٩ .

[3] انظر علم التفسير : د. / محمد حسين الذهبي ص ٤٨- ٥٠ ، تفسير القرطبي ج١ /٢٧، ٢٨ .

فإنه الوجه الذى يحذر منه العلماء والمشتغلون بالتفسير ، وهو القول فى القـــرآن عن جهل أو عن هوى ، وكلاهما يسئ إلى القرآن ويخرجه عن غاياته وأهدافه الجليلة .

ولقد حذر الرسول ﷺ من القول فى القرآن بمجرد الرأى فقال : مـــن قـــال فى القرآن برأيه فأصاب فقد اخطأ .

وهذا الحديث الشريف يحذر من القول فى القرآن بالرأى سواء أكان عن جهل ، أو كان عن هوى ، وقد روى الترمذى عن ابن عباس عن النـــبى ﷺ قولـــه :"" اتقـــوا الحديث على إلا ما علمتم فمن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار ""[1] . وقـــد فسر هذا الحديث تفسيرين :

أحدهمـــــا : هو التفسير عن جهل ، ويتمثل ذلك فيمن يقول فى كل القرآن بما لا يعرف من مذاهب الأوائل من الصحابة والتابعين .

والآخـــــر : هو الصادر عن هوى فى نفوس " الذين فى قلوبهم زيغ ، فهم يقولون فى القرآن أقوالاً يعلمون أن الحق فى غيرها ، معنيون بتهديد الرسول ﷺ " فليتبوأ مقعده من النار " .

والقرآن الكريم يعرض للموقف المطلوب والموقف المرفوض من متشابه القرآن فى قول الله سبحانه ﴿... فأما الذي فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه إبتغـــاء الفتنـــة وإبتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله . والراسخون فى العلم يقولون أمنا به كل من عنـــد ربنا ﴾[2] .

ولقد حمل بعض أهـــل العلم معنى القول فى القرآن بالرأى علـــى أنـــه الهـــوى والتشهى ، ويعنون بذلك أن من قال فى القرآن قولاً يوافق هواه ، و لم يأخذه عن أئمـــة السلف فأصاب ، فإنه قد أخطأ لحكمه على القرآن بما لا يعرف أصله ولا يقـــف علـــى مذاهب أهل الأثر والنقل فيه ، ويحرم هذا الإتجـــاه لأن القائل به قد تكلف ما لا علم

---

[1] صحيح البخاري باب العلم ٣٨ ، صحيح مسلم كتاب الزهد / ٧٢ .

[2] سورة آل عمـــران : ٧ .

له به ، وسلك غير ما أمر به .

(فلو أنه أصاب المعنى فى نفس الأمر ، لأنه لم يأت الأمر من بابه كمن يحكم بين الناس على جهل فهو فى النار ، وإن وافق حكمه الصواب فى نفس الأمر ، لكن يكون أخف جرما ممن أخطأ)[1] .

ولقد روى عن عائشة قالت : ما كان رسول الله ﷺ يفسر من كتاب الله إلا آيات بعدد علمه إياهن جبريل .

وقال ابن عطية : معنى هذا الحديث فى مغيبات القرآن وتفسير مجمله ونحو هذا كوقت قيام الساعة ، وعدد النفخات فى الصور ورتبة حلق السموات والأرض وهذه الرواية توضح حدود القول بالرأى فى القرآن .

فلا ينبغى للإنسان المسلم أن يقول فى القرآن برأيه فى مسائل الغيب ولا فى المسائل الأخرى التى فصل فيها القرآن أو حسمتها السنة بناء على وحى منزل ، ولقد قال الله سبحانه لنبيه ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾ فأضاف الله سبحانه البيان إلى رسوله ﷺ .

علم من ذلك أنه ليس لغير الرسول شئ من البيان لمعانى القرآن .

وتبقى بعد ذلك مساحة محدودة للإنسان لفهم القرآن تتمثل فى الطاقة اللغوية لإدراك التراكيب والمعانى التى تعبر عنها آيات القرآن الكريم .

تفسير القرآن بالقرآن أو بالسنة :

إن من أحسن طرق التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن ، فما أجمل فى مكان فإنه يفصل فى مكان آخر ، وذلك مصداقا لقوله تعالى فى وصف القرآن ﴿ كتاب فصلت آياته ﴾[2] . وقوله ﴿ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم ﴾[3]. وما أبهم فى مكان فإنه يوضح فى مكان آخر وهكذا .

---

[1] مقدمة ابن كثير فى تفسيره .

[2] سورة فصلت : ٣ .

(٣) سورة الأعراف : ٥٢ .

وليس أقدر على تفسير النص من صاحب النص نفسه ، ولقد نزل القرآن على رسول الله ﷺ وتكفل الله ببيانه كما تكفل بحفظه ، وذلك هو معنى قوله تعالى ﴿ ... إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأنه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه ﴾[1] .

فإذا لم يهتد القارئ إلى بيان فى القرآن ، فإنه يبحث فى السنة ، حيث تكون السنة شارحة للقرآن وموضحة له .

ولقد قال الأمام الشافعى : كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن .

ومن أجل هذا قال رسول الله ﷺ :"" ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه "" والسنة مثل القرآن من حيث النزول على رسول الله بالوحى .

والأمثلة على تفسير القرآن كثيرة نسوق بعضها فيما يلى :

قوله تعالى ﴿فتلقى أدم من ربه كلمات فتاب عليه ﴾[2] . نجد تفسير هذه (الكلمات) وبيانها فى قوله تعالى ﴿ قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾[3] . وكأن هذه الآية استغفار عن الذنب الذى وقع فيه آدم ، وتلك هى (الكلمات) التى تلقاها آدم من ربه فرددها فتاب الله عليه . وهى من أجل هذا تصلح إستغفارا عاما يردده عباد الله التائبون رجاء عفو الله وغفرانه .

قوله تعالى ﴿ ... ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما ﴾[4] فإن الاسم الموصول فى هذه الآية " الذين " مفسر فى آية أخرى بأنه يعنى أهل الكتاب

وذلك قوله تعالى ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل ﴾[5] . اخرج أحمد والشيخان وغيرهم عن ابن مسعود قال : " لما نزل قوله تعالى :

---

(1) القيامة : ١٧ - ١٩ .

(2) البقرة : ٣٧ .

(3) الأعراف : ٢٣ .

(4) النساء : ٢٧ .

(5) النساء : ٤٤ .

﴿ الذين أمنوا و لم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ [1] .شق ذلك على الناس فقالوا : وآينا لا يظلم نفسه ؟ فقال الرسول ﷺ :"" إنه ليس الظلم الذى تعنون ، ألم تسمعوا قول العبد الصالح ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ [2]

فالظلم هنا يقصد به الشرك ، ومعنى ذلك أن الآية فى سورة لقمان قد فسرت الآية فى سورة الأنعام .

كما نجد أمثلة كثيرة أخرى لتفسير القرآن بالسنة نذكر منها - على سبيل المثال - ما يلى : -

أخرج الترمذى عن على رضىَ الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ عن يوم الحج الأكبر الوارد فى قوله تعالى ﴿ ... وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برئ من المشركين ورسوله﴾ [3] فقال الرسول ﷺ هو يوم النحر ، ولا يملك تفسير هذا اليوم إلا الله ، وإلا رسول بوحى من الله سبحانه وتعالى ، حيث السؤال عن هذا اليوم سؤال عن شئ غيبى ، والإجابة عن هذا السؤال أمر توقيفى وأمر الغيب "" لا يعلم تأويله إلا الله "" .

وأخرج مسلم وغيره عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر : ﴿ واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾[4] . ... ثم يقول بعدها : ألا وإن القوة الرمى فقد فسر رسول الله القوة بالرمى ، وهذا التفسير يتسع لكل وسائل الرمى ، كالرمى بالسهام والنبال والحجارة فى القديم ، والرمى بالنيران والقنابل والصواريخ فى العصر الحديث .

ويقول الله سبحانه ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾[5] .

---

[1] الأنعام : ٨٢ .

[2] لقمان : ١٣ .

[3] التوبة : ٣ .

[4] الأنفال : ٣ .

[5] يونس: ٢٦.

ويقول الرسول ﷺ فى تفسير ذلك : "" الحسنى : الجنة . والزيادة : النظر إليه تعالى . ولا يملك هذا التفسير أيضا إلا الرسول الذي يوحى إليه .

ويقول الله سبحانه ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ﴾ [1] وقد فسر الرسول ﷺ استطاعة السبيل إلى الحج بالزاد والراحلة [2] .

هذه أمثلة قليلة لتفسير كثير للقرآن بالقرآن أو للقرآن بالسنة ، وهى - كما ذكرنا - من أحسن طرق التفسير . ولكننا إذا لم نجد التفسير فى القرآن ولا فى السنة فإننا قد نجد ذلك فى أقوال الصحابة وهم أقرب الناس إلى الرسول ، كما أنهم - بهذا القرب - أدرى بموضوع التفسير ، ولقد قال ابن مسعود : " كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن ".

وقال أبو عبد الرحمن السلمى : " حدثنا الذين كانوا يقرئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبى ﷺ فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعلموا بما فيها من العمل ، فتعلمنا القرآن والعمل جميعا " [3]

وإذن فإن تعرض الصحابة لتفسير القرآن ليس آتيا من فراغ ، وإنما هو يعتمد على قربهم من رسول الله ﷺ ، وعلى سماعهم منه وعلى تلقيهم لتفسيره وأقواله فى القرآن وهو الذى نزل عليه كما نزل عليه تفسيره . وفى ذلك يقول الله سبحانه ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾ [4] .

ولقد بين ابن تيميه أن تفسير القرآن يكون على نوعين :

النوع الأول :

وهو الذى يستند على النقل فقط مما قدمناه فى تفسير القرآن بالقرآن أو بالسنة ، فإذا كان منقولا نقلا صحيحا عن النبى قبل ، وأما إذا نقل عن أهل الكتاب ككعب

---

[1] آل عمران : ٩٧ .

[2] أخرجه الحاكم والترمذى وابن ماجه .

[3] مقدمة ابن كثير على تفسيره ، تفسير ابن جرير ج٢ /٧٢ .

(٤) النساء : ١٠٥ .

ووهب توقفنا عن تصديقه وتكذيبه لقول الرسول ﷺ : "" إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم "" .

النوع الثانى :

وهو ما يمكن معرفة الصحيح منه من غيره ، ومنه ما لا يمكن ذلك .

ويأتى الخطأ فى هذا النوع من جهتين :

إحداهما : حمل ألفاظ القرآن على معان اعتقدوها لتأييدها به كما يفعل ذلك أصحاب الفرق وأتباع المذاهب فى الأصول والفروع المتعصبون لها .

وهم حين يفعلون ذلك فإنهم يجعلون مذاهبهم أصولا والقرآن فرعا لها يحمل عليها .

ثانيهما: التفسير بمجرد دلالة اللغة العربية من غير مراعاة المتكلم بالقرآن وهو الله عز وجل ، والمنزل عليه والمخاطب به [1] .

ويرى الإمام محمد عبده [2] أن هذا النوع الأخير وهو اتجاه التفسير اللغوى الذى لا يقصد به إلا حل الألفاظ وإعراب الجمل ، وبيان ما ترمى إليه العبارات والإشارات من النكت الفنية ... نوع جاف مبعد عن الله وعن كتابه وهذا لا ينبغى أن يسمى تفسيرا ، وإنما هو ضرب من التمرين فى الفنون كالنحو والمعانى وغيرها .

وفى مقابل هذا النوع المرفوض نوع آخر يكون فرض كفاية حيث يستجمع المفسر فيه شروط التفسير ، ويذهب فيه إلى فهم المراد من القول ، وحكمة التشريع فى العقائد والأحكام على الوجه الذى يجذب الأرواح ويسوقها إلى العمل والهداية المودعة فى الكلام ليتحقق فيه معنى قوله تعالى ﴿ هدى ورحمة ﴾ ونحوهما من الأوصاف .

فالمقصد الحقيقى وراء كل تلك الشروط والفنون هو الاهتداء بالقرآن على الوجه الذى يتفق مع الآيات الكريمة المنزلة فى وصفه وما أنزل لأجله من الإنذار والتبشير والهداية

---

[1] انظر تفسير المنار ج ١/٨ - ١٠ .

[2] السابق : ٢٢ .

والإصلاح ، ثم العناية إلى مقتضى حال هذا العصر فى سهولة التعبير ومراعاة إفهام صنوف القارئين ، وكشف شبهات المشتغلين بالفلسفة والعلوم الطبيعية وغيرها [1] .

وخلاصة ذلك أن القرآن ما دام قد نزل هداية للإنسان ، وأن الغاية من نزوله تتمثل فى قوله سبحانه ﴿ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ﴾ [2] .

فإن فيه - كما ترسم هذه الآية علاقة السماء بالأرض المتمثلة فى نزوله إلى الناس وهو - كما وصفه الرسول - " مأدبة الله فأقبلوا من مأدبته " .

وفيه الحركة المتمثلة فى إخراج الناس من كل ظلمات الحياة إلى نور الإيمان فى الدنيا ونور الجزاء فى الآخرة ، وفيه مصدر الهداية المتمثل فى قوله تعالى ﴿ بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ﴾ .

وتفسيره إذن يجب أن يكون فى هذه الضوابط حتى لا ينحرف به إلى غير ما أراد الله من هذا القرآن ومن أجل الإنسان .

ولقد لخص مفسر كبير هو الطبرى فى كتابه (جامع البيان فى تفسير القرآن) القضايا التفسيرية فى كتابه على النحو التالى [3] .

١ - شرح الحديث الشريف "" أنزل القرآن على سبعة أحرف "" والانتهاء من ذلك إلى أن معناه أنزل القرآن بسبع لهجات من لغة العرب .

٢ - بيان اللغة التى نزل بها القرآن والرد على من قالوا إن فيه كلمات غير عربية .

٣ - وجوه تأويل القرآن ، وما يمكن الوصول إليه ، وما لا يمكن الوصول إليه .

---

[1] انظر تفسير المنار ج١ / ١٠-١١ .

[2] إبراهيم : ١ .

[3] انظر : الطبرى . د / أحمد محمد الحوفى ، سلسلة أعلام العرب / ١٠٨ - ١١٧ .

فالتأويل فى رأيه على ثلاثة أوجه :

أحدهمـــا : ما استأثر الله بعلمه ، وحجب معرفته عن جميع خلقه مثل وقـــت قيـــام الساعة والنفخ فى الصور .

وثانيهمـــا : ما خص الله بعلم تأويله نبيه ﷺ دون سائر أمته ، فلا سبيل إلى علم ذلك إلا ببيان الرسول لهم تأويله .

وثالثهـــا : ما كان علمه عند أهل اللسان الذى نزل به القرآن وذلك علـــم تـــأويل عربيته وإعرابه .

فصل فى بعض الأخبار التى رويت فى الحض على العلم بتفسير القرآن ومن كان يفسره من الصحابة وواضح من عرض هذه القضايا أنها داخلة فى علوم القرآن وعلـــوم التفسير دون الدخول فى التفسير ذاته ، كما ظهر فى تفسير القرآن ما يســـمى بالتفســـير الموضوعى وهو الذى يتناول جانبا واحدا من جوانب القرآن بالدارسة والبحث ، وغالبا ما تكون الدراسة لموضوع معين متناوله له من كل الجوانب ، مستوعبه لكل ما فيه مـــن جزئيات ربما لا يتاح تناولها فى التفسير العام .

ومن أمثلة هذا اللون من التفسير [1] :

- التبيان فى أقسام القرآن . - لابن القيم .
- مجاز القرآن . - لأبى عبيدة.
- مفردات القرآن . - للراغب الأصفهانى .
- الناسخ والمنسوخ - لأبى جعفر النحاس
- أسباب نزول القرآن - لأبى الحسن الواحدى
- أحكام القرآن (للجصاص - ابن العربى - ألكيا الهراس) .

---

[1] انظر : علم التفسير . د/ محمد حسين الذهبى / ٦٩ .

من نماذج القيم الإسلامية

- قيم التدين .
- قيم الأخلاق .
- قيم الاجتماع .

تكوين القيم من خلال بناء العقيدة

ضرورة الدين للحياة فى كل العصور

منذ أربعة عشر قرنا من الزمن جاء رسول الله ﷺ بالاسلام من عند ربه ، فخاطب به قوما من الأميين الذين إرتبطت حضارتهم وقيمهم بالجزيرة التى عاشوا فيها ، وبالرحلات التى قاموا بها بين اليمن شتاء والشام صيفا ، ثم فتحوا عيونهم على هذا الدين الجديد ، فرأوا شيئا جديدا ، وفتحوا آذانهم فسمعوا مبادئ جديدة ، وأحسوا أن هذا الدين ينقلهم إلى حضارة واسعة تمتد ظلالها إلى الحياة والمجتمع حيث تغير لهم كثيرا من العادات والتقاليد .

فبينما كان الجاهلى يفتخر بالعدوان على جيرانه ، ويرى فى هذا العدوان مظهرا من مظاهر القوة والمنعة ، جاء الاسلام فدعا إلى العفو والتسامح ، وجعله من مكارم الاخلاق ، وسمع العربى مثل قول الله عز وجل ﴿ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ، وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾ [1] .

وأخرج الاسلام العرب من حدود إجتماعية ضيقة إلى أفاق عالمية واسعة ، وكون لهم فكرا وثقافة كما بنى لهم مجدا وحضارة .

ولكن إذا كان قد فعل ذلك لقوم من الأميين ولمجتمعات البداوة منذ قرون ، فماذا يمكن ان يقدمه لأبناء القرن العشرين رواد المخترعات وبناة الحضارات ؟ .

إن إنسان القرن العشرين قد سيطر على الأرض فأستخرج كنوزها ، وسخر البحر فأكتشف أعماقه ، وهتك حجاب الفضاء فأستقر على القمر ، وهو بين ذلك يفرض إرادته وينشر سلطانه على موجات الأثير وأسلاك البرق ، ويضرب بجذور حضارته فى أعماق العالم .

فماذا يمكن أن يصنع له الدين بعد ذلك وما ضرورة الدين لحياته الحديثة

---

[1] فصلت : ٣٥ .

المتطورة ؟ قد يكون لهذا التساؤل وجاهته إذا كان مدلول الحضارة ثابتا لا يتغير ، وإذا كانت الغاية التى يسعى اليها الإنسان هى الغاية التى تسعى اليها الأديان ، ولكننا حيث نتأمل الطريق الطويل الذى سلكه أنبياء الله وهم يحملون الدين إلى أقوامهم نجدهم لا يخدعون الناس ولا يعدونهم بالطعام الشهى والكساء الفاخر ، ولكنهم يعرضون عليهم الحقيقة التى بعثوا بها من عند الله فيقول نوح لقومه ﴿ ولا أقول لكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، و لا أقول أنى ملك ، ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما فى أنفسهم إنى إذا لمن الظالمين ﴾ [1] .

وحين حاول المشركون أن يجروا رسول الله ﷺ إلى لون من التعجيز المادى فقالوا له ﴿ لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار ... ﴾ إلى آخر هذه التحديات ، كان جواب الرسول عليهم ﴿ سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا ﴾ [2] .

وإذن فإن ضرورة الدين للإنسان فى كل عصر لا تتمثل فى الرغيف الذى يأكله أو القرش الذى ينفقه ، أو الثوب الذى يرتديه ولكنها تتمثل فى مصاحبته لهذا الإنسان فى طريق الحياة موجها ومرشدا وصديقا ، وفى تنشئته على مبادئ دائمة وعقيدة ممتدة وإنسانية لا يحدها قطر من الأقطار ولا تتوقف على جيل من الأجيال ، ومن هنا لم يكن الإسلام مقصورا على طقوس معينة ، فالإسلام هو الحياة .

وإذا كان الدين ضرورة لحياة الناس فإن التدين فطرة فى طباعهم ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها ﴾ [3] .

وهو صبغة تنتظم الحياة بمدلولها الشامل وتعم الإنسانية على مسارها الطويل ﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون ﴾[4].

---

[1] هود : ٣١ .

[2] الإسراء : ٩٢ .

[3] الروم : ٢٠ .

(٤) البقرة : ١٣٨ .

وإذا كان الدين بوجه عام ضرورة لحياة الإنسان ، وفطرة فى طبيعته وصبغة فى نفسه ، فما موقع الإسلام من هذا التعريف الشامل ولماذا اعتنقنا الإسلام بالذات ؟ .

الواقع أننا لما انتهينا إلى أن الدين فطرة فى نفس الإنسان وأن فى طبيعته منذ الأزل شيئا يبحث عن الله المعبود فإننا نتفق إلى جانب ذلك على أن الدين عند الله الإسلام ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ [1] .

ولقد ذكرت كلمة الإسلام قبل نبينا محمد ﷺ ، وهى تعنى الاتجاه الصحيح والتسليم الكامل لله رب العالمين يقول الله تعالى ﴿ ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ﴾ [2] . ويقول ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه : ما تعبدون من بعدى ، قالوا : نعبد الهك وإله ابائك إبراهيم واسماعيل واسحق إلها واحدا ونحن له مسلمون ﴾ [3] .

ويبعث سليمان رسالته إلى ملكة سبأ بقوله :"" ألا تعلوا على وائتونى مسلمين ""وحين تؤمن هى تقول :"" رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين "" [4] .

ولقد جاء الاسلام مصدقا للأديان كلها ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ [5] .

وإذا كانت الاديان من عند الله وإذا كان الانبياء جميعا سفراء الله إلى البشر فإننا مكلفون بأن نعتنق آخر الأديان ونتبع آخر الأنبياء .

---

[1] آل عمران : ٨٥.

[2] آل عمران : ٦٧ .

[3] البقرة .

[4] النمل : ٣١ - ٤٤ .

[5] الشورى : ١٣ .

والإسلام – إلى جانب ذلك – دين يتفاهم مع طبيعة الإنسان ويحترم آدميته ويعترف بحقوقه فى الحياة ويشرع له ما ينظم أمر دنياه كما يرسم له ما يهيئ أمر آخرته ، والمسلم يساير فطرته حين يعتنق الإسلام ويمضى فى طريقه فى الحياة وهو يشعر أن هذا الدين صديق له إن أحس بوحشة من الناس ، ومرشد له إن تفرقت به السبل ، ويقرأ فى كتاب الله عز وجل مثل قوله تعالى ﴿ إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم ﴾ [1] . وإذا كنا قد انتهينا إلى ضرورة الدين لإقامة الحياة والسمو بكيان الإنسان وإذا كنا قد إرتضينا الإسلام دينا حيث هدانا الله اليه وارتضاه لنا دينا ، فإن ذلك يقتضى أن نقتنع اقتناعا كاملا بالإسلام منهجا وطريقا ، والى أن نؤمن به إيمانا واعيا فكرا وتطبيقا إلى أن ندافع عنه دفاعا حاسما ضد خصومه الجاهلين به أ والمعاندين له ، وهذا يدعونا أيضا إلى الاعتقاد الجازم بقدرة الإسلام على مواجهة التيارات العصرية وحل المشكلات العالمية .

وليس هذا الإيمان ضربا من التعصب الأعمى أو العصبية المذمومة ، فإنه ليس من الإيمان ان نسخر من معتقدات غيرنا ، أو أن نسفه اراء المخالفين لعقيدتنا .

إنما الإيمان الذى نقصده هو حب الدين والارتباط بنظمه وشريعته ، والإلتزام بأحكامه وتعاليمه .

وهذا هو الإسلام الذى نعتقده ونؤمن به ، دين مصدق للأديان كلها ، وفطرة فطر الله الناس عليها ، ومرشد ينظم أمر الدنيا والآخرة وهو الدين الخاتم الذى ختم الله به الرسالات والشرائع ونبيه هو خاتم المرسلين .

والإسلام بهذا الفهم عقيدة معروضة على العالم ومنهج شامل لكل مرافق الحياة ، فقد بعث الله به رسوله إلى الناس كافة ، وبث فيه من المقومات ما جعله صالحا لكل عصر موجها إلى كل جيل ، ونحن اخيرا مكلفون بأن نأخذه برفق فأنه متين ، " ولن يشاد الدين أحد الا غلبه " وأن نعرضه أيضا على الناس برفق مستضيئين بقول الله

---

[1] النجم : ١٣ .

عز وجل ﴿ وقل أمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم اعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير ﴾ [1] .

وقوله ﴿ قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن أتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ [2] .

---

[1] الشورى : ١٥ .

[2] يوسف : ١٠٨ .

تكريم الإنسان فى ظل الإسلام

يقول الله عز وجل ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ [1] .

وهذه الآية الكريمة تشريف للإنسان وشهادة بسمو منزلته عند ربه سبحانه وتعالى ولكن ما المقصود بالتكريم فى هذه الآية ؟ إن البعض يرى أنه حمل الناس فى البحر والبر ورزقهم من الطيبات وتفضيلهم على كثير من المخلوقات أى أن آخر الآية يفصل أولها ويفسره ، ولكن عطف هذه النعم على تكريم الانسان يفيد أنهما شيئان متغايران فإن تكريم الله للإنسان تكريم للمعنى الانسانى السامى فيه ، وتقدير للجانب النبيل فى طبيعته - ولعله سبحانه - من أجل ذلك قد جعله فى الأرض خليفة ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال إنى أعلم ما لا تعلمون ﴾ [2] .

وهذا التكريم أيضا بهذا المدلول يفسره اصطفاء الله رسلا من الناس يبلغهم رسالته ويصلهم به عن طريق ملائكته ، ويجعلهم سفراء بينه وبين عباده ،بل إن تكليف الله للإنسان فى الدنيا ومحاسبته فى الآخرة ليدل على كرامة هذا المخلوق وعلو منزلته ، لأن تكليفه شهادة بجدارته وشرفه على كثير من المخلوقات كالجماد والطير والحيوان .

ولذلك فإن القرآن ينعى على الذين عطلوا مواهبهم وتجاهلوا العطايا النفسية الممنوحة لهم فلم يستجيبوا لداعى الله ، وعجزوا عن استيعاب ما انزل الله - يقول عز وجل ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ [3] .

---

[1] الإسراء : ٧٠ .

[2] البقرة : ٣٠ .

[3] الأعراف : ١٧٩ .

وإن الميراث الذى يتركه رسول الله ﷺ للمسلمين فصاروا به خير أمة أخرجت للناس ، لم يكن ثروة مما تعارف عليها الناس و لم يكن عرضا من أعراض الدنيا ، وإنما كان هذا الميراث مبادئ مسوقة للبشر يتعاملون بها على الأرض ويتصلون من خلالها بالسماء ، ولقد روى أن أبا هريرة : مر يوما بسوق المدينة فقال : ما أعجزكم يا أهل السوق قالوا : وما ذاك يا أبا هريرة ؟ قال : ذاك ميراث الرسول يقسم ، فبادروا ليأخذ كل منكم نصيبه قالوا : وأين يقسم ؟ قال : بالمسجد .. فدخلوا المسجد مسرعين ، وخرجوا فقالوا : يا أبا هريرة ، ما رأينا تركة تقسم . قال : فماذا رأيتم ، قالوا : رأينا قوما يصلون وقوما يقرءون وقوما يتدارسون الحلال والحرام ، فقال : ويحكم ، فهذا هو ميراث الرسول ﷺ .

وهذا الفهم يدل على احترام كيان الإنسان الذى يحيا بمبادئه لا بشهواته ، ويعيش على سمو عقيدته لا على سعار غرائزه ﴿ أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها . كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾ [1] .

فإذا كرم الله عباده هذا اللون من التكريم ، فإنه يدعوهم إلى أن يكرموا أنفسهم وأن يقدروا المنح الإلهية المبثوثة فيهم ، فالحاكم يحترم المحكومين لأنه واحد منهم غير مفروض عليهم والمحكومون يحترمون الحاكم لأنه يمثلهم ويسهر على مصالحهم ولقد نظم أبو بكر رضى الله عنه عند العلاقة بين الحاكم والمحكوم فى خطبته المشهورة حيث قال :" اطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لى عليكم " .

هذا بين الحكام والمحكومين ، أما بين الناس بعضهم والبعض الآخر ، فقد دعا الاسلام إلى الحب فى الله وبشر الرسول ﷺ المتحابين فى الله بالجنة ، فنصب لهم كراسى حول العرش ، ويفزع الناس وهم لا يفزعون .

---

[1] الأنعام : ١٢٢ .

ونهى الإسلام عن الشحناء والبغضاء فقال الرسول ﷺ "" لا تشاحنوا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا .. وكونوا عباد الله إخوانا "" . وبغض فى الغيبة لأنها اعتداء على الغائب وانتقاص من كرامة المغتاب ، كما بغض فى احتقار الإنسان لأخيه الإنسان ، وبحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه .

وهذا يشير إلى أن كيان الانسان فى الإسلام مصون وبأن كرامته فى ظل عقيدته مضمونه ، وبأنه بهذا الدين يزكى الجانب الإنسانى فيه ، وبغير هذا الدين يرتد كما يقول القرآن ﴿ أسفل سافلين ﴾ .

ولقد جاءت الأديان كلها تحرر وجدان الإنسان من العقائد الفاسدة وتحرر ارادته من الطواغيت المتسلطة ، ونطلق إسارة من عبوديته لغير الله ، ولقد اجتمعت كلمة الأنبياء جميعا على مبدأ واحد وهو عبادة الله وحده وعدم الإشراك به ، فنجد نوحا يقول لقومه ﴿ إنى لكم نذير مبين ألا تعبدوا إلا الله ﴾ [1] .

وهودا يقولها لقومه ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ [2] . وكذلك صالح ولوط وشعيب لأقوامهم ، ويأتى ابراهيم فيستنكر على قومه عبادة الأصنام قائلا ﴿ ماذا تعبدون أئفكا آلهة دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين ﴾ [3] .

ويسجل القرآن حوارا بين موسى وفرعون يتمثل فيه صمود العقيدة الصحيحة وعلوها على الإدعاء المذموم ﴿ قال فرعون : وما رب العالمين ، قال : رب السموات والأرض وما بينهما ان كنتم موقنين ، قال لمن حوله : ألا تستمعون . قال ربكم ورب آبائكم الأولين ، قال : إن رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون ، قال : رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ﴾ [4] .

وحول هذه الحقيقة أيضا نسمع قول الله عز وجل والخطاب للمسيح عليه السلام

---

[1] هود : ٣٥ - ٣٦.

[2] هود : ٥٠ .

(٣) الصافات : ٨٥ - ٨٧ .

[4] الشعراء : ٢٣ - ٢٨ .

﴿وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذون وأمى ألهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب ، ما قلت لهم إلا ما آمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم ﴾ [1] .

ثم يأتى الإسلام تتويجا لهذا المنهج الربانى وإتماما لهذا البيان الذى أسس على العقيدة الصالحة وينادى نبى الإسلام عليه الصلاة والسلام بنداء لأهل الكتاب ﴿ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ [2]

وإذا كنا هكذا قد رأينا الأديان كلها قد وجهت عنايتها الأولى إلى تحرير عقيدة الانسان من الزيغ ، فذلك لأن تحرير العقيدة للإنسان هو الخطوة الأولى لتحرير الإنسان نفسه ، فإنه إذا عبد الله وحده و لم يشرك به شيئا ، تحرر ضميره من الشك ، وتحررت إرادته من الضعف ، وتحررت نفسيته من الخوف ، ووقف فى وجه كل تحديات الحياة يحمل عقيدته فى قلبه ، ويضع عزمه نصب عينيه ، ولعل هذا هو تفسير رسول ﷺ "" إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى "" .

هذه العقيدة الصحيحة فى نفس المسلم كفيلة بمحو ما عداها من العقائد الزائفة ، وإشراق معنى الوحدانية فى قلب المؤمن قادر على طمس كل الخواطر الزائغة وحين تتجسد الحقيقة الألوهية فى المشاعر تتحطم فيها كل الأوثان ، سواء أكانت هذه الأوثان من حجارة أو من الثروة أو من البشر .

ومن هنا نشأ الصدام بين الرسل وهم أصحاب الدعوات وبين المكذبين وهم أصحاب السلطات ، ولقد سجل القرآن أكثر من صورة لهذا الصدام ﴿ ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحى

---

[1] المائدة : ١١٥ - ١١٦ .

[2] آل عمران : ٦٤ .

وأميت ، قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ وكان فرعون موسى رمزا على العناد والتكذيب ﴿ وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا ، وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب ﴾ [1] .

ومن خلال هذا الصدام أيضا نحس السر فى تمسك اصحاب الدعوات بطريقتهم وإن ساروا فيه على الأشواك ، فهم بأيمانهم قد تحرروا من كل الخوف ، وبصبرهم أستعذبوا كل بلاء ، وكان حداؤهم على طريق الله مثل قوله عز وجل ﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ [2] .

وإذا جاز أن تكون الفلسفات المختلفة أفكارا مجردة تخالط العقل وتصافح الوجدان ،فليس الإسلام محسوبا - بالطبع - من هذه الفلسفات ، لأنه جاء دينا ، والدين لا يساق إلى الانسان فلسفة ضارية فى الخيال أو آرقاما مغرقة فى المادية ، ولكنه جاء هداية إلى الناس ينهد لهم طريق الحياة ، ويمد لهم هذا الطريق حتى يصلهم بالآخرة .

ولقد لخص القرآن الكريم الغاية من نزوله على رسول ﷺ وذلك حيث يقول الله عز وجل فى جزء من آية كريمة ﴿ ... كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ﴾ [3] .

ويتضح لنا كلما أمعنا النظر فى آيات القرآن الكريم أن الاسلام يصور حقيقة الايمان فيجعله شطرين لا غنى لأحدهما عن الآخر : شطرا عقائديا يتمثل فى الإيمان بالله ، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

---

[1] غافر : ٣٧ .

[2] العنكبوت : ٢ .

[3] إبراهيم : ١ .

وشطرا سلوكيا يتمثل فى الترجمة العملية عن الشطر العقائدى ، بالإمتثال لأوامر الله ، والألتزام بتكاليف الإسلام ، وليس الإيمان كما قال الرسول ﷺ بالتمنى ، ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل ، ونقول أنه لا غنى لأحد الشطرين عن الآخر ، لأن الإيمان بلا عمل إيمان عقيم ، والعمل بلا إيمان عمل مردود ، ولا يتصور الإسلام إيمانا خالصا لا يحرك صاحبه إلى العمل الخلاق والسلوك القويم كما لا يقبل عملا لا يقوم على قاعدة صلبة من الإيمان بالله .

ويقول الله عز وجل ﴿ أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أمن أسس بنيانه على شفا جرف هار فإنهار به فى نار جهنم ﴾ [1] .

وعندما اهتدى المؤمنون إلى الله فهتفوا من قلوبهم ﴿ ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ﴾ .

وعندما أتجهوا اليه أن يتجاوز عن زلتهم ويغفر لهم ذنوبهم .. ﴿ ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ﴾ وعندما طلبوا منه النصر الذى وعدهم إياه .. ﴿ ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد ﴾ كانت استجابة الله لهم مشروطة بالعمل والجهاد فى سبيله ، والصبر على بلاء الدعوة إليه ..﴿ فأستجاب لهم ربهم إنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾ [2] .

فالإيمان هنا إيمان مقترن بالعمل ، والعمل هنا عمل صالح يستظل بالإيمان ، ولقد قيل لرسول ﷺ قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك ، قال : " قل آمنت بالله ثم أستقم " . فالاستقامة مطلوبة بعد الإيمان. استقامة على حقيقته والتزام بأعبائه وأرتباط بمبادئه .

---

[1] سورة التوبة : ١٠٩ .

[2] آل عمران : ١٩٤ .

وإن سلوك الفرد فى ظل الإيمان يجب أن ينعكس على المجتمع رحمة وبرا وتعاونا ، فالفرد فى تصور الاسلام لبنة فى بناء المجتمع ، وكلما كانت اللبنة صالحة كان البناء قويا متينا ، ولا يرحب المجتمع برجل كثير الصلاة كثير الصيام ، ولكنه قليل النفع لإخوانه ، سريع الإيذاء بلسانه ، فصورة هذا الرجل كصورة المرأة التى عرضت على الرسول ﷺ والتى تصوم وتصلى ، وتؤذى جيرانها بلسانها ، فقال : هى فى النار ، فلم ينفعها صيامها ولم تنفعها صلاتها ، حيث كان الصيام كفيلا بتطهير سلوكها كما طهر جوفها ، وكانت الصلاة كفيلة بكفها عن العدوان لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، فلما لم تتأدب بآداب الصلاة ، فكأنها لم تصل و لم تصم وكان جزاؤها النار .

وخلاصة القول : ان سلوك الفرد المسلم ترجمة عملية لمبادئ الاسلام ، وتنفيذ واقعى لهداية القرآن ، وإذا صار بين الناس كان الصورة المادية على الأرض للمبادئ الروحية فى الكتاب داخله إيمانا واعتقادا ، ويقيم الدنيا من خارجه سلوكا وتحصيلا .

والإنسان فى هذه الحياة الدنيا يحرص - ضمن ما يحرص - على شيئين : رزقه وأجله ، وهو بصدد البحث عن الرزق يقرأ قول الله عز وجل ﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين ﴾ [1] .

وهو أيضا من خلال حرصه على أجله قد يؤمن بأن الأجل محدود ، وبأن عمر الانسان معدود وأنه ﴿ وإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ [2] .

وقد يؤدى به الفهم إلى القعود عن طلب الرزق ما دام مكفولا ، والى الوقوف فى وجه الأخطار ما دام العمر محدودا ، وهذا لا شك فهم قاصر لمعنى كفالة الله الرزق وتحديد الأجل ، ولقد سأل بعض الصحابة الرسول ﷺ : علام نعمل وقد تكفل الله بالرزق ؟ فقال : أعملوا فكل ميسرلما خلق له ، ولقد كان عمر يقول :" لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول : اللهم ارزقنى فإن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة ".

---

[1] هود : ٦ .

[2] الزاريات : ٢٢ .

وإذا كان الله قد تكفل بالرزق لكل دابة فى الأرض ، فإن هذا الرزق لا يجرى على الكسالى والخاملين ، ولكنه يجرى على الطالبين العاملين ﴿ وقل أعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ [1] ولقد كان أنبياء الله يعملون ، وكانت لهم وسائلهم المختلفة فى طلب الرزق ، وهم بذلك يرسمون الطريق للسالكين ، ويضربون المثل للمقتدين ، فيقول القرآن عن داود ﴿ وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون ﴾ [2] . وقد كان النبى عليه السلام يقول :"" ما من نبى إلا وقد رعى الغنم "" .

والسعى على الرزق طبيعة فى نفس الانسان ، لأنه صادر من حرصه على حياته وهذا الحرص فطرة مركبة فيه ، والاسلام يقر على ذلك بل يدعو اليه فهو يدعو إلى طلب الرزق فى مثل قول الله عز وجل ﴿ فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور ﴾ [3] . ويذكره بالسعى فى هذا الطلب ألا يدخل وقت الصلاة فى وقت السعى فيقول تعالى ﴿ فإذا قضيت الصلاة فأنتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ﴾ [4] .

ولكن الانسان أيضا وهو فى طريقه إلى البحث عن رزقه قد ينسى غايته السامية أو يتجاهل رسالته على هذه الارض فلا يتحرى الرزق الحلال ولا يبحث عن اللقمة الطيبة ، وحينئذ لابد من تذكيره بشفافية الروح التى بين جنبيه ، ونبيل الغاية التى يعيش من اجلها ، وبضرورة التحرى عن المطعم الحلال والمشرب الحلال ، فعن أبى هريرة أ، رسول الله ﷺ قال : "" أن الله طيب لا يقبل إلا طيبا ، وإن الله امر المؤمنين بما أمر المرسلين فقال ﴿ يأيها الرسل كلوا من الطيبات وأعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم ﴾ ، وقال ﴿ يأيها الذين أمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ ، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث

---

[1] الأعراف : ٣٤ .

[2] الأنبياء : ٨٠ .

[3] الملك : ١٥ .

(٤) الجمعة : ١٠ .

أغبر ، مطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ... يمد يده إلى السماء : يا رب يا رب .. فأنى يستجاب له ؟ " فإن رسول الله ﷺ يستبعد أن يستجيب الله لمثل هذا الانسان الداعى ، لأن الدعاء عبادة ، بل هو مخ العبادة كما قال الرسول والعبادة لابد أن يتهيأ لها الانسان بطهارة النفس كما يمكن أن يتهيأ لها بطهارة الجوارح .

وقد يفهم البعض وهو يسعى فى طلب الرزق أن كثرته دليل على رضى الله عليه وأن قلته دليل على سخطه ، وهذا الفهم أيضا غير صحيح ، فإن الله يعطى الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب ، ولكنه لا يعطى الدين إلا لمن يحب .

ورضا الله على عبده متعلق بحسن نيته ووضوح قصده ، فمن كان يطلب الرزق من حلال ، وينفقه فى حلال ، فإن الله يبارك فى رزقه وإن كان قليلا ، وذلك كما يفعل فى الربا والصدقة ﴿ يمحق الله الربا ويربى الصدقات ﴾ [1] .

وعن الأموال الكثيرة المتراكمة فى الأيدى غير المؤمنة يقول الله عزوجل :﴿ ولا تعجبك أموالهم و أولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ [2] .

وعن تقدير الرزق على بعض العباد يقول الرسول ﷺ فيما يروى أبو سعيد الخدرى : "" أن الله عز وجل " ليحمى عبده المؤمن الدنيا وهو يحبه ، كما تحمون مريضكم الطعام والشراب " .

فإذا اجتمع الرزق الطيب الكثير فى اليد المخلصة الأمينة ، فنعم المال الصالح للرجل الصالح .

---

[1] البقرة : ٢٧٦ .

[2] التوبة : ٨٥ .

الدعوة التامة

لقد كان من آخر آيات القرآن الكريم نزولا إن لم يكن آخرها على الاطـــلاق قوله عز وجل :﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ [1] .

ومن مأثور دعاء المسلمين " اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمـــة آت محمدا الوسيلة.." .

وإذا تأملنا الآية الكريمة وجدنا أن الله سبحانه وتعالى يمتن على عبـــاده المؤمنـــين بدين كامل ونعمة تامة ، وأن الدعاء الذى يردده المؤمنون عقب كل أذان هـــو صـــدى للإحساس بهذه النعمة التى أنعم الله بها على عباده ، فهم يعتنقون دينا شـــاملا يخـــاطب البشرية فى كل زمان ومكان ، ويؤمنون بدعـــوة ربانيـــة ينتظمها كتاب وصفـــه الله بقوله ﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾[2] .

ومعنى كمال الدعوة التى يلتف حولها المؤمنون أنها تصاحب الانسان فى رحلتـــه على هذه الأرض فترشده إلى الطريق السوى ، وتوجهه إلى ما ينفعه وتحذره مما يضره ... ثم تجعل طريقه بعد ذلك موصولا بربه ، وتجعل حياته امتدادا لآخرته .

ومن معالم دعوة الإسلام الواضحـــة انها جعلت حدودا ثابتـــة لا يتعداهـــا المسلمون ﴿ ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ﴾ [3] . ثم أطلقت لهم المجال الفكرى فى سائر نواحى الدنيا ، وفتحت لهم أبواب الحرية فى سائر المعاملات الشخصية مما يجلب لهم المصالح ويدرأ عنهم المفاسد ، ويتفق مع الأسس العامة التى رسمها الدين .

وان رسول اللهﷺ ليدعـــو المؤمنين إلى الاستمساك بهذه الدعوة التامة ويجعلها

---

[1] المائدة : ٣ .

[2] الأعراف : ٥٢ .

[3] الطـــلاق : ١ .

الدستور الذى يهتدى به المؤمنون فيقول : "" تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلـــوا بعدى ابدا ، كتاب الله وسنتى "" .

فلا مجال للتغيير فى أصول الدين ، وقد اكتملت ، ولا مجال للإبتداع فى أســـه وقد تمت ، فإن (كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار) .

ولكن مجال التأثر والتغيير هو ميدان التطور البشرى الذى تمثله مراحل الإنسان فى هذه الحياة ، وهو ما ام تطورا صالحا يرتفع بقيمة الإنسان ويحقق صورته كما أرادها الله فهو تطور محمود يحث الإسلام عليه ، ويدعو المسلمين اليه ، والحكمة ضالة المؤمـــن أنى وجدها فهو احق الناس بها . وهذا الدين بهذه الصورة الكاملة وهذه المعالم التامة يخاطب أمة واحدة لا فرق فيها بين أبيض واسود ولا تفاوت فيها بين عربى وأعجمـــى فـــالكل يعبدون ربا واحدا ، حيث يقول الله ﴿ إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقـــم الصـــلاة لذكرى ﴾ [1] .

ويتجهون إلى قبلة واحدة بصلوات واحدة لا تتغير صورتها ، ولا تتعدد طريقتها مهما تعددت أقطار المسلمين .

وهذه الوحدة الشاملة يعبر عنها القرآن الكريم فى قوله سبحانه وتعالى ﴿ وإن هذه امتكم أمة واحدة .. وأنا ربكم فاعبدون ﴾ [2] .

فإذا اعترى عقائد الناس فى هذه الحياة نقص ، فإن دين المسلمين كـــامل ، وإذا أصيبت مبادئ العالم بقصور أضل الناس فدعوة الإسلام تامة .

وفى ضوء هذه النعمة التى أمتن الله بها على عباده يجـــب أن يشعـــر المســـلمون بوحدتهم ، وأن يستظلوا براية الدين الذى هم به كل شئ وبدونه لا شئ .

القرآن والإنسان :

تندرج منازل الإنسان – فى القرآن – صعودا وهبوطا بمقدار معرفته لإنسانيته كما

---

[1] سورة طـــه : ١٤ .

[2] الأنبيـــاء : ٩٢ .

أرادها الله ، وبمقدار أمانته على الرسالة التى وجد من أجلها على الأرض .

والإنسان – بتصور القرآن – كبير بفطرته التى فطر الله الناس عليها وطبيعته التى هداه الله اليها ، وهو بذلك كفيل بأن يقيم ميزان الله على الأرض وبأن يحرس قانونه على هذه الحياة ... أى أنه بتعبير القرآن يكون فى الأرض خليفة .

والإنسان فى ضوء هذا الاستخلاف مخلوق كريم : يعمر الأرض بالسلام ويحكم الدنيا بالحب ، ويملأ العالم عدلا ورحمة .

وهذه الصورة فى مضمونها هى صورة الإنسان الذى جعله الله فى الأرض خليفة حيث يسلك الإنسان طريقه المستقيم بقلب سليم .

وهذا القلب ميزان صلاحه أو فساده على هذه الارض . وحياة الإنسان – فى ضوء هذه الصورة – أيضا هى الحياة التى يدعو الإسلام الناس اليها بعد أن كفل لهم وسائلها ومهد لهم الطريق اليها وأرسى من أجلهم الدعائم إلى بنائها .

فالله – سبحانه – قد بسط الأرض للإنسان ودعا إلى استغلال خيراتها ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ﴾ [1] .

فلا مجال للاختلاف على الأرض وهى واسعة ، ولا مجال للتنازع على الرزق وهو مبسوط .

والله خلق الكون كتابا مفتوحا يتدبر آياته أولو الألباب ﴿ قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يرمنون ﴾ [2] .

فإذا سخر الله الكون للإنسان فمن أجل أن يعرف الإنسان نعمة الله عليه ، ويعيش مع إخوانه فى ظل هذه النعمة مرتبطا بهم بروابط الأخوة التى هى سر بقاء المجتمعات الإنسانية الكاملة ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ﴾ [3].

---

[1] الملك : ١٥ .

[2] يونس : ١٠١ .

(٣) آل عمران : ١٠٣ .

لكن حين يهبط الإنسان من هذه الدرجة السامية التى خلف الله من أجلها ويتنكر للفطرة التى فطر الله عليها وكأنه ينسى نفسه ، ويتنكر للمعنى الإنسانى الرفيع الذى أودعه الله فيه ... وحين ذلك يذكره القرآن بأصل نشأته ليعود إلى طبيعته ويذكره بقدرة الله ليرجع إلى الإيمان ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب . إنه على رجعه لقادر : يوم تبلى السرائر . فما له من قوة ولا ناصر ﴾ [1] .

فلعله بهذا التذكير يعود إلى حقيقته ، ولعله بمثل هذا النداء يثوب إلى رشده ، فإن تمادى فى غيه وقطع شوطا فى طريق الضلالة و لم يستجب لنداء الإيمان فى قلبه ، فهو كما قال القرآن عنه ﴿ قتل الإنسان ما اكفره . من أى شئ خلقه . من نطفة خلقه فقدره ﴾ [2]

والإنسان بين هاتين المترلتين – الصعود والهبوط – يحيا حياته ويحقق ذاته ويعبر عن إرادته ، فإذا شاء ارتفع فصار بقلبه المشرق بمعانى الخير إنسانا كريما .

وإذا شاء هبط فصار بنفسه الأمارة بالسوء مخلوقا ذميما وهو بهداه لا ينفع إلا نفسه ، كما إنه بضلاله لا يجنى الا عليها ﴿ ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها ﴾ [3] .

---

[1] الطارق : ٥ – ١٠ .

[2] عبس : ١٧ .

[3] الشمس : ٧ – ١٠ .

القرآن ومدلول التطور الحضارى

دور الأديان فى حياة الإنسان

نود أن نشير إلى ظاهرة شائعة فى الناس جميعاً على إختلاف مجتمعاتهم وجنسياتهم ودياناتهم ، هذه الظاهرة هى أ ن الدين لم يعد هو الأساس فى حياة الناس وإنما أصبح يشغل زواية متواضعة من زوايا هذه الحياة العريضة ، وتحول مدلول الدين فى مفهوم كثير من الناس إلى صورة رومانسية ، إن كانت جميلة فهى كاللوحة المعلقة على الجدار : تزينه ولكنها لا تمنعه من الإنهيار وتتلخص علاقة الناس بالدين بناء على هذه النظرية بأن يحافظوا على رونقه ، كما يحافظ على جمال اللوحة ، وبأن يقدسوه بإبعاده عن الحياة كما يحرصون على اللوحة فيبعدون عنها الغبار ونتيجة لذلك فقد تحول الدين إلى تاريخ : إن كنا نقدسه فكما نقدس جثث الأعزاء من الأموات ، وان كنا نحافظ عليه فكما نحافظ على الآثار فى متاحفنا .. فهل هذا هو الدين ؟ .

ولقد يقال فى هذا المجال أيضا ان الانبياء الذين اختارهم الله فبعثهم إلى الناس قد خاطبوا قوماً محدودى العقول ، محدودى الثقافة ، محدودى الحضارات وأن هؤلاء الأقوام المتخلفين فى كل شئ قد فتحوا عيونهم على الأديان التى جاء بها الأنبياء فرأوا شيئا جديداً :رأوا أن هذا الدين ينقلهم إلى حضارة واسعة تمتد ظلالها إلى حياتهم وتقاليدهم وتخرجهم من حدود إجتماعية ضيقة إلى افاق عالمية واسعة ، وتكون لهم فكراً وثقافة كما تبنى لهم مجداً وحضارة .

فإذا كانت الأديان قد فعلت ذلك لقوم من المتخلفين فماذا يمكن ان تفعل لأبناء العصر الحديث؟ إن إنسان القرن العشرين قد سيطر على الأرض فاستخرج كنوزها وسخر البحر فاكتشف اعماقه ثم مزق حجاب الفضاء حتى استقر على سطح القمر ، وهو بين ذلك يفرض ارادته وينشر سلطانه على موجات الأثير وأسلاك البرق ويضرب بجذور حضارته فى أعماق العالم .

فماذا يمكن أن يصنع له الدين بعد ذلك ؟ وما ضرورة الدين لحياته الحديثة المتطورة ؟

حقيقة علاقة الإنسان بالدين

هذا الموقف أحس انه يواجه الأديان كلها فى العصور الحديثة ، فللدين قداسة فى القلوب ، ولكن ليس له حياة فى السلوك ، وله صوت ينبعث من أعماق الماضى ، ولكن ليس له واقع نتعامل به فى الحاضر.

وأنا كأحد المؤمنين بدين - أحب أن احدد هذا الموقف وأواجهه من وجهة نظر دينى الذى هو الإسلام وأحب ابتداء أن احدد ذلك فى نقطتين :

١ - ما الرسالة التى جاء بها الدين الإسلامى إلى الناس ؟

٢ - ما المقصود بالتطور بالمفهوم العصرى وبالمفهوم الدينى ؟

الرسالة التى جاء بها الدين الدين الإسلامى إلى الناس يحددها القرآن فى جزء من آية واضحة ﴿ كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ﴾ .

ويقصد بالظلمات هنا معنى واسع لكل لون من ألوان الإنحراف فى الحياة والتواء الطبيعة الإنسانية كما أرادها الله .

كما يقصد بالنور معنى واسع لكل لون من ألوان الاستقامة والخير وتحقيق الجانب المضئ فى نفس الإنسان .

فالانطلاق فى الحياة بغير غاية ظلام ، وتحديد غاية الإنسان فى الحياة نور ، اعتداء القوى على الضعيف ظلام ، وإنصاف الضعفاء من الأقوياء نور ، بل أن الارتباط والإلتزام به ، من وجهة نظر الإسلام هو الحياة نفسها وإذا كان قد شبه إعتدال أمور الإنسان فى ظل الدين بالنور ، فقد شبه الدين نفسه بالحياة وشبه الحياة بغير دين بالموت ، فقالفى القرآن :﴿ أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ﴾ .

وبناء على هذه النظرية فلقد جاء الإسلام ليتفاهم مع طبيعة الإنسان فيحترم

آدميته وينظم علاقته بالحياة ، فيشعر الإنسان أ ن هذا الدين صديق يرشده ويعينه لا جلاد يلهب ظهره بسياط التكاليف وصرامة الأوامر والنواهى .

وإذا سار الإنسان على الطريق القويم للحياة ، فإنه يجد الدين يشجعه على المضى ويثبت قدميه على الطريق .

أما إذا زلت قدمه فسقط فإنه سيجد الدين يأخذ بيده برفق ويحيى نفسه بالأمل لأن الله كما يقول ﴿ واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم ﴾ .

وفى عبارة مختصرة نستطيع أن نقول : أن رسالة الإسلام هى تنمية المعنى الإنسانى فى الإنسان .. والدين بناء على ذلك هو الحياة .

التطور فى مفهوم العرف ومفهوم الدين

تبقى النقطة الثانية من هذا الحديث وهى المقصود بالتطور .

وأبادر قبل الإجابة عن هذا السؤال وتحديد معنى التطور فأشير إلى أن الدين لا يتملق أتباعه ، ولا يخدع المؤمنين به ولا يوهمهم بأن يحقق لهم كل ما يطلبون حتى يصفوه بالتطور وإنما الدين كالطبيب : يهمه أن يعالج المريض بالدواء المناسب ، وان كان مر المذاق ويحرمه من بعض الأطعمة الضارة وإن كانت شهية هذه واحدة أما الثانية : فإن الدين لا يتطور ، لأن الدين مبادئ خالدة وهذه المبادئ هى كيان الإنسان وحياته ، فمنذ وجد الإنسان على هذه الإرض ، والتزم بمجموعة من المبادئ فى حياته فإن مدلول هذه المبادئ لم يتغير ولكن الذى يتغير هو الإنسان نفسه .

وانطلاقا من هذه النظرة فلقد اعتبر الإسلام ان الحقيقة التى بعث بها انبياء الله جميعا واحدة ، وأن دور هؤلاء الأنبياء هو تذكير الناس بهذه الحقيقة وتثبيتهم على مبادئها ، والقرآن يقول للمسلمين ﴿ قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والاسباط ، وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون ﴾ .

وذلك تأكيد للمعنى الكلى للدين ، والنظرة الشاملة للدعوة ، وبأن المبادئ التى دعا اليها أول نبى فى مجملها هى المبادئ التى دعا اليها اخر نبى .

بقى أن نحدد المقصود بالتطور

وتحديدنا لهذه الكلمة يعتمد أساسا على تحديدنا السابق لرسالة الإسلام ، وهى بناء الإنسان بنقله من الظلمات إلى النور .

والتطور بمدلوله العصرى يختلف عن التطور بمدلوله الروحى :

فإن المجتمعات تتطور والمخترعات تتطور ، والفنون تتطور ولكن هذا التطور تطور الشكل وتغير المادة .

أما التطور بمعناه الروحى فهو يعنى انتصار الجانب الإنسانى دائما ووقوف الإنسان بمبادئه وقيمه وأخلاقه فى مواجهة التيارات العاصفة للحياة والإنسان المنتصر فى نظر الإسلام هو الإنسان الذى لا يستعبد إلا لربه : محكمته فى داخله ، وقيادته من ضميره ، وسعادته فى إيمانه وهو وإن كان يدب بقدم على الأرض فإنه يتعلق بقلبه فى السماء .

والحضارة كما يعرضها أحد الكتاب العرب تبتدئ بمعنى روحى قليل المظهر ، ثم تنتهى بمظهر ضخم يتراخى به الزمن حتى لا تبقى فيه بقية من المعانى الروحية [1] .

ومعنى ذلك انه لا عبرة بحضارة تعنى بالمظهر وتهمل المضمون ولا وزن لأمة تتقدم فى مخترعاتها وتتأخر فى مبادئها .

وليس معنى ذلك أن الإسلام يرفض التطور الحضارى ، ويقف فى مواجهة تيار الحياة الحديثة . وكيف نتصور ذلك ورسالته بعث الناس من الموت إلى الحياة ونقلهم من الظلمات إلى النور .

إن الاسلام يحث أتباعه على أ، يحرصوا على الحياة كما يحرصون على الآخرة ويقيموا الدنيا كما يقيمون الدين ، والمسلمون يقرءون فى كتابهم قول ربهم:

---

[1] عبقرية خالد : عباس محمود العقاد .

﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ وهم مأمورون أن يستثمروا المال إلى اقصى حد ، وبأن يديروا المصانع بأحدث الوسائل ، وبأن يستعينوا فى سيرهم إلى الحضارة بأرقى الخيرات ، والحكمة ضالة المؤمن : أنّى وجدها فهو أحق الناس بها .

وإذا كانت هناك مظاهر متخلفة فى العالم الإسلامى المعاصر وإذا كنا ننظر فى هذه الايام فنرى بلاد الإسلام عاجزة عن ملاحقة ركب الحضارة ، فإن ذلك كله محسوب خطأ على الدين ، والدين برئ منه ، فهو الذى نقل المسلمين الأوائل من البداوة إلى الحضارة ، ومن الأمية إلى التعليم ، ومن التخلف فى كل المجالات إلى الكشوف فى كل المجالات .

والعالم الإسلامى المعاصر فد وقع فريسة استعمار متطور مدروس مزق كيانه وشوه عقيدته وأفسد صورة الدين المشرقة فى نفسه والتخلف الحضارى الذى نراه فى هذه الايام لا يتهم به الإسلام ، ويفسر على ما أشرت اليه من تشويه الدين فى نفوس بعض المسلمين ، واكتفائهم بتقديس الدين عقيدة ومبادئ وعدم التزامهم بتطبيقه سلوكاً وعملاً

وإذا دعا الإسلام إلى الأخذ بكل أسباب التطور والحضارة ، وبارك كل تقدم نبيل فى الكشوف والمخترعات ، فإنه يجعل الحضارة فى خدمة الإنسانية ويجعل التقدم المادى من أجل تنمية الجانب الروحى الذى يمتاز به الإنسان على سائر مخلوقات الأرض .

ولذلك فإن هذا التقدم يجب أن تكون له غاية واحدة هى إقامة الحياة العادلة بين الناس ، وتطبيق ميزان الله على الأرض فالمال مال الله ، والناس جميعاً عباد الله .

وغاية الحضارة الإسلامية - إذن - أن يعيش المسلم فى سموّ عقيدته لا فى تسلط شهوته ، وفى ارتفاع إنسانيته لا فى انحطاط حيوانيته وفى إشعاعات قلبه ومشاعره لا فى نداءات بطنه وغرائزه .

فإذا لم يستطع الإنسان أن يحقق هذه المبادئ فى نفسه ، وإذا لم يستطع ان يتغلب

على شهوته فى التسلط والإعتداء، وإذا لم يستطع أن يشعّ من حوله الحب والسلام ، فهو فى نظر الإسلام إنسان متخلف وإن كانت وسائل حياته المادية من ملبس ومسكن ومواصلات متطورة إلى أبعد حدود التطور .

وإلا فكيف نوفق بين مظهرين متناقضين فى حياتنا المعاصرة :

الإنسان حقق لنفسه كل وسائل المتعة والرفاهية الحضارية الحديثة ، ومع ذلك فقد حقق أعلى نسبة فى الانتحار والتخلص من الحياة !! .

ألا يعنى ذلك فراغه الرهيب من الداخل ، وعجزه عن تحقيق سعادته وتوازنه عن طرق مظهره البراق من الخارج ؟

الدين والحياة

وإذا كان الدين ضرورة لحياة الناس ، فإنه ليس ظاهرة إجتماعية من صنع الانسان تتبدل وتتغير، وليس اختراعاً يدركه ما يدرك " الموضات " من ظهور ، ثم ازدهار ، ثم ضمور ... ثم موت ، ولكنه فطرة فطر عليها ، والفطرة لا يخترعها الناس ولا يبتكرونها ، وإنما هم منجذبون اليها ، معبرون عن طبيعتهم من خلالها .

وهذه الفطرة ثابتة قائمة متحققة فى طبيعة كل نفس ﴿ لا تبديل لخلق الله ... ذلك الدين القيم .. ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

أما الإسلام وقدرته على خلق مجتمع متطور ، فإنه ليتمثل فى تشريعاته وأحكامه السمحة المتطورة فى الصور والأمثلة الآتية [1] :

١ - تتأثر أحكام الإسلام بالبيئة وتغير الأزمان ، وهى تصدر مرتبطة بعلتها وتتغير بتغير هذه العلة .

٢ - من اجل مراعاة مصالح الناس وتطور مجتمعاتهم لم يتناول القرآن بالتفصيل أحكام المعاملات المالية والجنائية والدولية والقضائية وما شابه ذلك مما يتغير بتغير البيئة ويتأثر بإختلاف النظم .

---

[1] الإسلام والمجتمع المتطور ، مجلة العربى ، يوليو ٧٢ .

٣ - اقتدى التابعون بأحكام نبيهم بعد وفاته ، ولكن اقتداءهم كان إقتداء واعيا مبصرا ، فوفقوا بين هذه الاحكام وبين حاجة الفترة التى يعيشونها دون الإعتداء على روح الدين وحكمته فى التشريع ، وكان ذلك انطلاقا لفهمهم فى النقطتين السابقتين من ارتباط الأحكام بعلتها وتغيرها بتغير هذه العلة ، وأن الأساس فى التشريع الإسلامى هو مراعاة مصالح الناس ولقد شجع النبى أصحابه على الاجتهاد فى فهم الأحكام وتطبيقها ، وكان هناك قاعدة عريضة تقول : "" من أجتهد فأصاب فله أجران ، ومن أجتهد فأخطأ فله أجر "" ، فهو إن اصاب فله أجر الاجتهاد وأجر الصواب ، وإن اخطأ فله فى الاجتهاد ، وأما خطؤه فليس محسوبا عليه .

ظاهرة الإنصراف عن الدين

وإذا كان الناس بدافع من إدعاء التطور ، أو برغبة من الشعور بالتحرر وبخاصة الشباب منهم ، ينفلتون من الدين ويضيقون به ويرون إنه من عوامل التخلف وأسباب الانحطاط الحضارى ، فإن ذلك راجع إلى رغبة داخلية مكبوتة فى التمرد على القيود ، والتخلص من الألتزامات والانطلاق فى الحياة دون غاية أو ضابط ، وهذا هو ما نلمسه فى شباب العالم بما يسمى شعورا بالقلق أو التمزق أو الرفض ومثل هذا الشباب الجامح لا يمكن أن يؤدى للإنسانية دورا نافعا إلا إذا استقرت نفسيته ولا تستقر بملبس فاخر وأكله شهية أو سيارة فخمة ... ولكنها تستقر بإعادة مشاعر الحب والأمان اليه ، ولا يتأتى ذلك إلا عن طريق مبادئ الدين الثابتة التى تقيم الحياة المتطورة .

نحو جيل متدين

وإذا كان هدفنا جميعا من عرض حقائق الدين هو ربط أبنائنا به ، وصبغ حياتهم بتعاليمه اقتناعا وسلوكا ، فإننا يمكن أن نضع المقترحات التالية خطوات على الطريق إلى الإيمان :

أولا : لا ينفع المتدينين لبعث هذا الدين فى النفوس أن يتحدثوا عن محاسنه ويزينوه لأبنائهم بقدر ما يلزمون أنفسهم به ، فلابد أن يكونوا هم قبل كل شئ مقتنعين

بدينهم اقتناعا كاملا منهجا وطريقا وفكرا وتطبيقا ، ويتبع هذا الاقتناع ان يلتزموا هم أولا بمبادئ الدين إيمانا بالقلب وتصديقا بالجوارح ، بحيث يكون هذا الدين واقعا فى الحياة ومنهجا فى السلوك لا شيئا كماليا نضفيه على حياتنا كما نزين به بيوتنا .

ثانيا : ويتبع هذه الخطوة أن نعرض الدين على عقول أبنائنا ليفكروا ، وعلى مشاعرهم ليتأثروا ، وعلى حياتهم ليجدوا فيه حلولا مناسبة لمشكلاتهم الطارئة الملحة ، فليس الدين هو مجموعة التعليمات والوصايا التى تساق اليهم فى لحظات وجدانية ، ولكن الدين ، كما أشرت هو الصديق ، وهو المرشد وبأختصار ... هو الحياة.

ثالثا : الدين ليس أسرارا غامضة ، ولكنه حقائق واضحة وعلى ذلك فإن لأبنائنا أن يناقشوا وأن يفهموا ، وأحب أن أحذر فى هذا المجال من إضفاء طابع الصرامة على الدين ، بحيث يحس أبناء الجيل بأنهم أمام "" دكتاتور "" غامض رهيب يفرض عليهم ان يقدسوه ، ولا يحق لهم أن يناقشوه .

رابعا : لا يجوز أن تكون التربية الدينية فى المدارس حصصا لشرح مقرر دراسى يعقد فى امتحان تكون نتيجته نجاحا أو رسوبا كأى مادة دراسية ، ولكن يجب ان تكون هذه التربية إثارة للعقل وتنبيها للوجدان ، ومن هنا فقد يتوافق سلوك التلميذ مع تعاليم الدين ، وحينئذ يجب أن يقفوا عند نقطة التعارض ، ويقاوموا بحزم دون تدليل لسلوكهم أو مجاراة لميولهم .وعلى ضوء اتفاقنا لمدلول التطوير فى الدين يجب ان يكون سلوكهم نحو تشكيل جيل متدين .

القرآن وحضارة الإنسان

يقول الله عز وجل ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا اليما ﴾ [1] .

---

[1] الإسراء : ٩ .

وان لكل حضارة أساسا يقوم عليه بناؤها ويرتكز عليه كيانها ، وان لكل أمـــة متحضرة دستورا ينظم حياتها ، ويقوم العلاقة بين افرادها وحضارة تقوم على غير أساس تشبه قصرا يقوم على الرمال ، يعجبك مظهره وتأخذك زخارفه ، ولكـــن مصـــيره إلى الانهيار والزوال .

وأمة من غير دستور تشبه رعية من غير راع : يتكاثر أفرادها ، وتتجمع أعدادها ولكن أحوالها فوضى ، وأعداد أفرادها متناثرة لا يحكمهم رباط ، فهم كما صورها نـــبى الإسلام عليه السلام "" كثير ولكنهم غثاء كغثاء السيل "" .

ولقد وضع الإسلام للمسلمين منهجا ، كما وضع لحضارتهم أساسا ، وأرســـى لمجتمعهم دستورا ذلكم الدستور هو القـــرآن الكريم ، ولقد جاء هذا القرآن ليخـــاطب الناس ، فينظم لهم حياتهم ، ويرسم لهم منهجهم ويرشدهم إلى ما ينفعهم ، وينظم لهـــم العلاقة بينهم وبين أنفسهم كما نظم لهم العلاقة بينهم وبين خالقهم .

ولأن صاحب الدستور الربانى هو خالق الناس من العدم ،فلقد جاء هذا الدستور الحكيم ملما باحوال الناس ، مراعيا لحاجة البشر ، ومعبرا عن الحركة الحضارية للإنسان ،بل أكثر من هذا وأبعد ... وصورا لكل ما تهجس له النفس من خواطر ، وما يتردد فى حناياها من مشاعر ، وصدق الله العظيم حيث يقول ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلـــم مـــا توسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد ﴾ [1] ، وإذا استطاعت دساتير الأرض كلها أن تدعى القدرة على تنظيم حياة الناس والى تقنين تعاملهم فى هذه الحياة فإنهـــا لا تستطيع أن تدعى القدرة على التغلغل فى نفوسهم ، والأطلاع على ما توسوس به هـــذه النفوس فتلك هى قدرة الله ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ [2] .

ومن هنا كانت دقة القرآن الذى هو دستور المسلمين ومن هنا أيضا كانت الأمة الملتزمة بهذا الدستور هى ﴿ خير أمة أخرجت للناس ﴾.[3]

---

[1] ق : ١٦ .

[2] الملـــك : ١٤ .

(٣) آل عمران : ١١٠ .

يقول الله تعالى فى هذا الكتاب المحكم ﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ [1] .

والمؤمنون الذين استقبلوا هذا الكتاب ضياء للعقيدة ودستورا للحياة يرون الوجود أكبر من كيانه الظاهرى وأعمق من واقعه المشهود ، فالحياة كما صورها القرآن هى ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ لا عالم الشهادة وحدها ، وهو الدنيا والآخرة لا الدنيا وحدها ولقد قال المكذبون حينما واجهوا رسول الله بتكذيب البعث والنشور ﴿ ما هى الا حياتنا الدينا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ﴾ .

ولكن ميزان العدل الإلهى يقضى بأن يثاب المحسن ويعاقب المسيئ ، وهو إن أفلت من قبضة القانون فى الدنيا فإنه لا يفلت من عقاب الله فى الآخرة ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئا ، وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ [2] .فما يناله الإنسان من شئ فى هذه الأرض فليس نصيبه كله ، انما هو بعض هذا النصيب ، وما يفوته هنا من الجزاء فلا يفوته هناك فإنه لا ظلم ولا بخس ولا ضياع ، هكذا يقول الله تعالى فى محكم كتابه :﴿ فاليوم لا تظلم نفس شيئا ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ [3] .

وبقدر إيمان المؤمنين بدقة دستورهم وعدالة احكام الله لهم يكون إيمانهم بقيمة الانسان وكرامته عند الله ، لأنه قبل أن يأمرهم بالهداية دلهم على الطريق ، وقبل أن يأمرهم بالمعاملة وضع لهم الدستور ، وقبل ان يدعوهم إلى الدين بعث اليهم الهداة ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ [4] .

فليس الإنسان كيانا مهملا فى القرآن ، وإنما هو مخلوق كريم بنفحة من روح الله

---

[1] الأعراف : ١٠٠ .

[2] الأنبياء : ٤٧ .

[3] يس : ٥٤ .

[4] النساء : ١٦٥ .

﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين﴾ وهو بهـذه النفحة الربانية مستخلف فى الأرض وبها أيضا يجتمع الناس فيجعلوها هى الصلة التى تربط بيهم إذا ترابط غيرهم من الناس على أساس من نداء المادة كالطعام والمال والمنصب ﴿ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾ [1] .

وكما كرم القرآن الفرد ، فقد احترم عقله وكرم مشاعره ، فلم يجعل له هذا الوجود فريسة لمصادفة عمياء أو فلته عارضة ، وانما كل شئ بقدر :

﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شئ عنده بمقدار ﴾ [2] .

ومظاهر الكون التى تصافح حواس الإنسان صباح مساء خاضعة لناموس لا يختل وقانون لا يضطرب ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ، فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أ ومتاع زيد مثله ، كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال ﴾ [3] .

ومن أجل هذا النظام المحكم فإن المؤمن مأمور بأن يأخذ بالأسباب وبأن يطمئن إلى قدر الله المحكم وحكمته البالغة ، وبأن يؤمن بأن يد الله فى كل حادث وفى كل أمر وهو الذى يجيب المضطر إذا دعاه . أحرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ولا تقل لو أنى فعلت كذا كان كذا ، فإن " لو " تفتح عمل الشيطان ، ومن هنا يحس أن القرآن الذى جاء به الرسول ﷺ ليس هو المواد الجامدة التى تحكمه وتحدد تصرفاته وإنما هو الرفيق الذى يرشده ويهدى خطواته ، لأنه هو واعظ الله فى نفس كل مسلم ، وليس هو الأوامر الصارمة الملقاة عليه لينفذها دون وعى ولكنه الهداية الرشيدة التى تمهد له

---

[1] محمد

[2] الرعد : ١٧ .

[3] الرعد : ١٧.

طريق الحياة وتجعل هذا الطريق موصولاً بالآخرة ، والقرآن كما قال الرسول ﷺ "" مأدبة الله فأقبلوا من مأدبته "" .

وهو كما قال الله عنه ﴿ يهدى للتى هى أقوم ﴾ وهدايته تشمل الاقوام والأجيال بغير حدود من زمان أو مكان ، فهو يهدى البشر بعقيدة صالحة واضحة إلى الله الخالق وحده دون سواه ، وهو بذلك يبعد كل ألوان السيطرة التى تحتل وجدان الإنسان وتستبد بأرادته فتحرره من الضلالة كما تحرره من الخوف ، وتنسق بين ظاهرة وباطنه ، وبين مشاعره وسلوكه ، وبين عقيدته وعمله ، فيعيش الإنسان حياته على الأرض موصولاً بالسماء ، ويحول كل عمل من أعماله إلى عبادة وان كان متعة واسترواحاً ، وان العبادة والمتعة لتمتزجان فى نفس المؤمن حتى تصير عبادته تزكو بها روحه ولقد كان رسول الله ﷺ "" إذا حزّ به أمر فزع إلى الصلاة ووجد فيها عزاءه وأمنه وراحته ، فهو يقول لبلال "" أرحنا بالصلاة يا بلال "" .

وتكون التكاليف الشرعية فى ضوء هذا الفهم علاجاً للنفس وتزكية لجانب الخير فى الإنسان ، وموازنة عادلة بين رغبته وقدرته ، فلا هى شاقة يعجز عن حملها فيمل الالتزام ويأس من الوفاء ، ولا هى لينة يترخص فى الأخذ بها حتى لا تشيع فى نفسه الرخاوة والاستهتار .

وهذا القرآن الذى ﴿ يهدى للتى هى أقوم ﴾ يقيم علاقات الناس بعضهم ببعض على أساس من المودة النقية الصافية التى لا تتأثر بالرأى ولا تميل مع الهوى ، لأنه أساس مستقيم من صنع العليم الخبير بخلقه وهو سبحانه أعلم بمن خلق وأعرف بمصالح العباد فى كل أرض وفى كل جيل ، فيهديهم للتى هى أقوم فى نظام الحكم ونظام الاجتماع ونظام التعامل الدولى اللائق بعالم الإنسان ، وفى الربط بين الديانات السماوية وتعظيم مقدساتها وصيانة حرماتها فإذا البشرية كلها بجميع عقائدها السماوية فى سلام ووئام.

وعلى الإيمان والعمل الصالح يقيم القرآن بناء المجتمع الإسلامى ، فليس هناك ايمان بلا عمل ، وليس هناك عمل بلا إيمان ، الإيمان بلا عمل إيمان مبتور لم يبلغ تمامه ،

والعمل بلا ايمان عمل مقطـــوع لا ركيزة له ... وبهما معا تسير الحياة على التى هى أقوم ، وبهما معا تتحقق الهداية بهذا القرآن .

والذى يقرأ القرآن فيتدبره بقلبه ، ويمزجه بمشاعره ، ويعيشه بحواسه كلها ينتهى إلى يقين حاسم بأنه هو العلاج الناجح لمشاكل الإنسانية من متاعبها التى تعانيـــها علـــى المدى البعيد ... لا كلمات منمقة تقـــال ، ولا جملا خطابيـــة تلقـــى ، ولا لحظـــات وجدانية تعاش .

ولكنه الشعور الحقيقى الذى ينبض به القلوب المخلصة ، فالله هو الذى خلـــق العباد والله هو الذى خلق الحياة التى يحياها هؤلاء العباد ، والله هو الذى ســـن الشريعـــة وشرع الدين الذى وصى به وهو يبدأ بإصلاح الإنسان نفسه فيربى ضمـــيره ، ويغـــرس الوازع النفسى فيه ، ويجعل رقابته من داخله لا من خارجه ، والفرد إذا صلح فقد صلح المجتمع وصلح العالم .

وإن الارتباط بالقرآن الكريم ومعايشته صورة واحدة : فهو ليس صورا بلاغيـــة تمتع القارئ برونقها وان لم يخل من بلاغة واعجاز فنى ، وهو ليس كتابا علميا يخـــرج على الناس بنظريات علمية واختراعات عجيبة وان احتوى على بعض الإشارات العلميـــة التى يدركها المتخصصون ولكنه كتاب حياة ، ودستور للمنهج الإسلامى الذى هو منهج الله وان الالتزام بذلك المنهج اعتقادا بالقلب وسلوكا بالجوارح وتعاملا مع الناس لا يعد تطوعا أو عملا من أعمال البر نمن به على هذا الدين ﴿ بل الله يمن عليكـــم ان هداكـــم للإيمان إن كنتم صادقين ﴾ [1] .

ولكن الإلتزام بهذا المنهج هو الإيمان ولا إيمان بغير التسليم لله والأخذ بمنهجه فى الحياة ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا ان يكون لهم الخـــيرة مـــن أمرهم ﴾ [2] .

---

[1] الحجـــرات : ١٧٨ .

[2] الأحزاب : ٢٦.

ولقد أنشأ القرآن حياة تفيأ الصدر الأول للإسلام ظلالها فكانت جديدة فى كل شئ : فى قيمتها وأخلاقها ومبادئها ، وأرسى حضـــارة شاملة إنبثقت من الصحراء ولكنها اشاعت الرخاء والأمن فى ربوع العالم .

و لم تكن هذه الحياة معجزة من المعجزات ، ولا أسطورة من الأســـاطير وإنمـــا كانت واقعا يمارسه المسلمون فيجدونه حيا فى مشاعرهم كما يجدونه حيا فى معـــاملاتهم وأساس ذلك إيمانهم بأن طريق الله هو الطريق ، وبأن منهجه هو الحياة وبأن كتابه هـــو الدستور ، ومن وراء ذلك الإيمان تجرد فى التطبيق واخلاص فى الالتزام ويقين راسخ بـــأن الله ﴿ قد أنزل على عبده الكتاب و لم يجعل له عوجا ﴾ [1] .

وبأن هذ الكتاب ما نزل الا لتتبع أحكامه وما جاء الا لتطبيق شريعتـــه وبهـــذا المفهوم السوى اصطبغت حياة المسلمين بصبغة الله ﴿ ومن أحسن من الله صبغة ﴾ وسادت كلمة الله وكلمة الله هى العليا.

فلما نحى الإسلام عن قيادة البشرية ولما أقصى القرآن عن واقع النـــاس تخبـــط المسلمون الذين فقدوا الطريق ، وتخبط العالم الذى يخترع كل يوم منهجا جديدا لا يسعد الناس بقدر ما يشقيهم ولا يوفر لهم الأمن بقدر ما يجلب لهم من الدمار .

وتلك هى سنة الله فى الخلق ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال : رب لم حشرتنى أعمى وقد كنتب بصيرا . قال : كذلك أتتك آياتنا فنيستها وكذلك اليوم تنسى ﴾ [2] .

---

[1] الكـــهف : ١ .

[2] طـــه : ١٢٣ - ١٢٦ .

التدين و الحضارة

حضارة الصمود

يقول الله تعالى ﴿ وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين . وما كان قولهم إلا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا في أمرنا ، وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ، فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين ﴾ [1] .

الطريق إلى الله واحد وإن تعدد الدعاة الذين يأخذون الناس اليه ، والدعاة إلى الله على لقاء دائم وإن انفصلت بينهم الأزمان ، وباعدت بينهم المسافات ، ونهاية الطريق إلى الله واحدة هي جنة عرضها السموات والأرض ، ولئن فرش هذا الطريق بالأشواك وحف بالمكاره ، فلأن سلعة الله غالية ﴿ ألا ان سلعة الله الجنة ﴾ .

والمؤمنون الذين يحملون عقيدتهم في قلوبهم ، ويحملونها بعد ذلك إلى قومهم ، يعلمون انهم حملة المصابيح والظلام مخيم ، ورسل الهداية والضلال مطبق ، وهذاة البشرية والناس نيام .

وهم بهذا اليقين يقدرون مصاعب الطريق حتى لا يفاجئوا بها و يفترضون المشاق حتى يتهيئوا لحملها ، ويؤمنون بأن المصاعب محك الرجال والفتن تمحيص للمؤمنين ، لأنهم يتلون في القرآن مثل قول الله عز وجل ﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ [2] . ومثل قوله تعالى ﴿ أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين أمنوا معه متى نصر الله . ألا أن نصر الله قريب ﴾ [3] .

---

[1] آل عمران : ١٤٦ .

[2] العنكبوت : ٢١٤ .

[3] البقرة : ٢١٤ .

وإذا علم الدعاة إلى الله انهم يسلكون الطريق المستقيم ، وأنهم على الحق سائرون استهانوا بالصعاب فى سبيل المبدأ ، وضحوا بالراحة لتحقيق الغاية ، واستعذبوا الموت ما دام فى سبيل العقيدة ، وصدق الله العظيم حيث يقول ﴿ الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ﴾[1] .

ولقد نزلت الآيات التى صدرنا بها هذا الحديث تعقيبا على الهزيمة التى مـنى بهـا المسلمون فى غزوة أحد ، وكانت أول هزيمة تصدم مشاعر المسلمين بعد انتصارهم المؤزر فى غزوة بدر ، وكانوا وهم منتصرون عددا قليلا يمتن الله عليهم بقوله ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ﴾ ولكن لما وقر فى نفوسهم أن النصر حليفهم فى كل الأحوال ، وانه هو الأمر الطبيعى والقاعدة المطردة التى لا تتخلف ... صدمتهم الهزيمة فى أحـد ففوجئـوا بالابتلاء الذى لم يكونوا يتوقعونه ، وفتنوا الفتنة التى لم يثبت لقسوتها الا القليلون .

ولقد ضرب الله للمؤمنين فى هذه المناسبة مثلا عاما من سيرة الانبياء السـابقين الذين ﴿ صبروا على ما كذبوا أوذوا ﴾ ، و لم يحدد لهم نبيا بالذات فكلهم سائرون علـى الطريق ، وكلهم معرضون للفتنة والابتلاء ولقد قال ذلك ورقة بن نوفل لرسـول الله ﷺ وهو يضع خطواته الأولى على طريق الدعوة إلى الله يقول له : ليتنى فيـها جلـدا . أى شديدا . حين يخرجك قومك . فسأله الرسول متعجبا : أو مخرجى هم ؟ فيجيبه : ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا أوذى .

والناس كما يقال . أعداء ما يجهلون ، فالأنبياء يدعونهم إلى الطريـق المسـتقيم فينحرفون عنه ، ويرشدونهم إلى الهدى فيميلون إلى الضلال ويأخذون بحجزاتهم ليبعدوهم عن النار فيتهاوون اليها كما يتهاوى الفراش .

ومن أجل ذلك نسمـع نبيا من أنبياء الله ينادى قومه (يا قوم مالى ادعوكم إلى

---

[1] آل عمران : ١٧٣ .

النجاة وتدعونني الى النار تدعونني لأكفر بالله واشرك به ما ليس به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار)[1] .

ويشكو نوح قومه إلى ربه فيقول ﴿ وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم ، واستغشوا ثيابهم واصروا واستكبروا استكبارا ﴾ [2] .

ولكن انبياء الله لهم رسالة هم مكلفون بتبليغها ، وهم يؤمنون بأنها الحق "" وماذا بعد الحق الا الضلال "" فلا تضعف نفوسهم لما يصيبهم من البلاء والكرب ، ولا تضعف قواهم عن الاستمرار في الكفاح ، ولا يستسلمون للجزع القاتل ، والعدو العنيد .. وشأنهم هذا شأن المؤمن التقي الذي يحمل عقيدة ، ويجاهد في سبيل الله .

هؤلاء الأنبياء الصادقون يجاهد معهم مؤمنون صادقون ، سمتهم الآية " الربيون " لأنهم انتسبوا الى الرب سبحانه ، وتوجهت قلوبهم إلى عبادته وقصدوا بأعمالهم وجهه ، واعتقدوا أن النبيين الذين يقودونهم على طريق الجهاد هداة معلمون لا أرباب معبودون . وأن نصر الله ليتزل على عباده لإيمان المؤمنين الواثقين ، وأن الله ليثبت ذلك المعنى في قلب نبيه عليه السلام حيث يقول له ﴿وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين ﴾ [3] .ويصف النبي الذين أمنوا معه بقوله :﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ .

وإذا كانت الصورة الظاهرة لهؤلاء " الربيين " قد أظهرت شدتهم في الحق وصبرهم على المحنة والابتلاء ، فإن الصورة الباطنية لنفوسهم ومشاعرهم قد أبرزت الفضيلة النفسية التي تأدبوا بها في حق الله فهم حينما يواجهون الأهوال التي تذهل النفوس لا تطير أنفسهم شعاعا ، ولا يغفلون عن صلتهم بالله فيلجئون اليه يطلبون العفو والمغفرة ويعترفون له بالذنب والإسراف قبل أن يطلبوا الثبات والنصر على الأعداء ما كان قولهم

---

[1] غافر : ٤١ - ٤٢ .

[2] نوح : ٧ .

[3] الأنفال : ٦٢ .

إلا أن قالوا ﴿ ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت اقدامنا وأنصرنا على القوم الكافرون ﴾ .

فهم لم يطلبوا اجرا فى الدنيا ولا ثوابا فى الآخرة ، وهم لم يتعلقوا بعرض زائل من أعراض الحياة، و لم تشغلهم أهوال الحرب التى أمامهم عن امانة العقيدة التى فى قلوبهم ، فإذا طلبوا النصر بعد ذلك فهم لا يطلبونه لأنفسهم شفاء لغيظ قلوبهم وكبتا لأعدائهم ، وأنما هما يطلبون النصر " على القوم الكافرين " بهذه الصفة ،صفة الكفر ، كأن الكفار أعداء المؤمنين ، وهم كذلك أعداء الله .

وما دام هؤلاء المجاهدون الصادقون لم يطلبوا لأنفسهم شيئا ، وتجردت نفوسهم فى الجهاد فلم يقصدوا به إلا الله وحده ، فقد أعطاهم الله من عنده كل ما يتمناه طلاب الدنيا ، وخير ما يتمناه طلاب الآخرة مجتمعين ، حيث يقول الله عز وجل ﴿ فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة .. والله يحب المحسنين ﴾ .

ولا خوف على أمثال هؤلاء من ثواب الدنيا ونعيمها ، فإن همهم قد ارتفعت فلا تفتنها النعمة وان نفوسهم قد علت فلا يخدعها بريق الحياة ، وأن ما فى قلوبهم من سعادة أجمل مما فى أيديهم من مال ، وأنهم كما قال أحد الحكماء عنهم : يعيشون فى الدنيا ، ولا تعيش فيهم ، ويأكلون منها ولا تأكل منهم..

أى أنهم يعيشون الحياة ويخالطونها ، ولكنهم لا يدعونها تحتل قلوبهم وتسيطر على مشاعرهم وتستبد بأهوائهم ...

وهم كلما تمكنوا فى الأرض فقد مكنوا لدين الله ، وكلما سادوا فى الحياة فقد سادت كلمة الله وهؤلاء هم الذين يقول الله فيهم ﴿ الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾[1] .

فوجه الله غايتهم ، وعلو كلمته أمنيتهم ، وجهادهم لتحقيق هذه الغاية ، وكفاحهم لإعلاء هذه الكلمة ... وهذه هى الرسالة الحقيقية للإنسان كما أراده الله .

---

[1] الحج : ٤١ .

وما دام المؤمنون قد ارتبطوا بمبدأ ، فلا يضرهم أن يفنى بعض الاشخـــاص ، لأن المبدأ على بقاء ، والأشخاص إلى فناء ، ولا يضعف مجموع المؤمنين بما أصاب بعضهم من الجراح وبعضهم من القتل حتى ولو كان المقتول هو النبى نفسه ، لأنهم يقاتلون فى سبيل الله وهو ربهم ، وإنما حظهم من نبيهم تبليغه عن ربهم وبيانه لهدايته وحكمته ﴿ وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين ﴾ [1] .وهم يثبتون بعد نبيهم كما يثبتون معه ، لأن علـــة الثبات واحدة فى الحالتين ، وهو كون الجهاد فى سبيل الله ، أى فى الطريق التى يرضاهـــا الله لحفظ الحق وحمايته ، وتقرير العدل واقامته ، وإذا ثبت المؤمن فى جهاد اعدائه وهـــم اعداء الله فقد طبع نفسه على الثبات فى كل أموره حتى أصبحت ملكة فى النفس وخاصية فى السلوك ، وإذا صبر على الأذى فى سبيل الله فقد روض نفسه على الصبر امـــام كـــل الشدائد التى تهون بجانب الفتنة فى العقيدة والعذاب فى سبيل الله .

ولقد صمدت فئة بجانب النبى ﷺ وهو يواجه أعداءه فدافعت عنه وهى تعلم أنها تدافع عن الرمز وعن الحقيقة ، وثبتت معه فكانت فى ظهور الحق على الباطل وإنتصـــار المؤمنين على الكافرين ، وكان صبرها سببا فى حب الله لها ، ﴿ والله يحب الصابرين ﴾ .

وحب الله للإنسان يفتح له مغاليق الأمور ويوضح أمامه شعاب الحياة ، ويدافع عنه إذا ألم به مكروه ﴿ إن الله يدافـــــع عن الذين آمنـــوا إن الله لا يحـــب كـــل خوان كفور ﴾ [2] .

ولقد روى فى صفة العـــبد الذى يحبه الله ((فإذا أحببته كنت سمعه الـــذى يسمع به ،وبصره الذى يبصر به ، ويده الذى يبطش بها)) ، أى أن مشاعره وأعماله لا تكون مشغوله الا بما يرضى الله ويقيم سنته ويظهر حكمته فى خلقه .

ويتجلى احساس الإنسان بالله حين تقع به الشدة ويلم به المكروه ، حين ذلـــك يطمئن لقدرة الله ويرضى بقدره ويشعر برعايته له .

---

[1] الكهـــف : ٥٦ .

[2] الحـــج : ٣٨ .

نجد هذا الموقف حين يهرع أصحاب موسى اليه والبحر أمامهم وفرعون من ورائهم "" قال أصحاب موسى إنا لمدركون "" فيجيب موسى بلهجة المؤمنين الواثقين : " كلا " وأساس هذه الإجابة " أن معى ربى سيهدين " فلم يكن موسى يعلم ماذا سيفعل ، وكيف سيهديه ربه ، ولكن كان يعلم أن الله معه ﴿ وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا ﴾ [1] . ومن ثم فقد كان الفرج عند الشدة وكان الحل عند الأزمة ، وكان قول الله عز وجل ﴿ فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فإنفلق فكان كل فرق كالطود العظيم وأزلفنا ثم الآخرين وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ﴾ [2] .

وهذا الموقف نفسه مع نبى الإسلام ﷺ إذ هو وصاحبه فى الغار والعدو يتربص بهما والعيون ترقبهما ، فيمسح الرسول على قلب أبى بكر ﴿ إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾ فتكون نتيجة هذا الإيمان الوثيق بالله عز وجل ﴿ فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها ﴾ [3] .

ولقد يقول قائل: أن تأييد الله كان لأنبيائه ، حينما كان يتزل الوحى ، وحينما كانت صلة السماء بالأرض صلة مباشرة ، وكان هذا التأييد بمثابة المعجزات التى يسوقها الله ويعجز عن صنعها البشر وقد أنقضى الوحى ، وانتهت المعجزات ، ولم يبق للإنسان إلا حوله القاصر وقوته المحدودة .

وهذا القول يجرد الإنسان من أهم عنصر فيه وهو الروح ، فما كانت حسابات الإنسان بأحكم من تقدير الله ، وما كانت حوادث الأرض بأقوى من قوته وتدبيره ، ولا يشترط فى التأييد أن يكون معجزة خارقة تتحدى العقل ويعلو على الأفهام ولكن .. تأييد الله لعباده توفيق ، كما أن هدايته إرشاد إلى الطريق.

ولم يقتصر نصر الله وتأييده على زمن النبوة وحدها ، بل أنه امتد على الزمان

---

[1] النساء : ٤٥ .

[2] الشعراء : ٦١ - ٦٥ .

[3] التوبة : ٤٠ .

حتى يشمل العباد فى كل زمان ، ولكن بالشرط الذى يتنزل بها النصر ، ويتم بها التأييد فالله سبحانه وتعالى يقول﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ [1] .

كما هو واضح ليس للرسل وحدهم ، ولكن للمؤمنين أيضا ، وليس فى يوم القيامة فقط ولكن فى الحياة الدنيا قبل يوم القيامة .

وغاية ما يطلب من الذين يسلكون طريق الكفاح أن يسلكوا منهاج النصر ، وهذا المنهج يتطلب منهم أن يتجنبوا كل السبل المنحرفة ليسلكوا سبيلا واحدا هو سبيل الله ، وأن يؤمنوا بأن السبيل الذى أختاروه هو السبيل الذى دلهم الله عليه وأرشدهم الرسول اليه ، وأن يضعوا فى أعتبارهم أن العقبات قد تعترض مسيرهم وأن الأشواك قد تفرش طريقهم وان العذاب فى سبيل العقيدة قد يقع عليهم ، فليستعدوا لذلك بهمه عالية وعزيمة ماضيةونفس صلبة ، فإن الطريق الذى سار فيه الأنبياء يسير يه المؤمنون وأن الذى وعد به الانبياء يحرزه أيضا المكافحون الصادقون .

وخلاصة ذلك كله اختيار للطريق ، وإيمان بالحق ، وصبر على البلاء ﴿ قل هذا سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ [2] .

﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير ﴾ [3] .

---

[1] غافر : ٥١ .

[2] يوسف : ١٠٨ .

[3] الشورى : ١٥.

حضارة الاستقامة على المنهج

يقول الله عز وجل ﴿ وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ [1] .

لقد دعا رسول الله ﷺ إلى الاسلام ﴿ دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا﴾ [2] . فدعا بذلك إلى منهاج واضح ومحجة بيضاء واخذ الناس إلى صراط مستقيم ﴿ صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الارض إلا إلى الله تصير الأمور ﴾ [3] .

وما دام هذا الصراط مستقيما فإنه لا يضل سالكه ولا يهدى تاركه ، إذ ليس بعد الحق الا الضلال ، وليس أمام تارك النور الا الظلمات ، ﴿ فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق الا الضلال ، فأنى تصرفون ﴾ [4] .ولقد روى فى سبب نزول قوله ﴿ وان هذا صراطى مستقيما ﴾ عن عبد الله بن مسعود قال : خط رسول الله ﷺ خطا بيده ثم قال : هذا سبيل الله مستقيما . ثم خط خطوطا عن يمين ذلك الخط وعن شماله ثم قرأ ﴿ وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ ثم قال ابن مسعود : تركنا محمد ﷺ فى أدناه وطرفه الجنة ، وعن يمينه جواد - أى الطرق - وعن يساره جواد ، وثم رجال يدعون من مر بهم ، فمن أخذ فى تلك الجواد انتهت به إلى النار ، ومن أخذ على الصراط المستقيم أنتهى إلى الجنة ولقد جعل الله سبحانه وتعالى الصراط المستقيم سبيلا واحدا وجعل السبل المخالفة سبلا متعددة ، لأن الحق واحد لا يتعدد والباطل طرق مختلفة ، وشعاب متفرقة ، فهو يشمل الأديان الباطلة من مخترعات محرفة ومنسوخة وبدع وشبهات ، وان التفرق أيضا فى الدين الواحد يجعله مذاهب ، ويتشيع لكل مذهب شيعة وحزب ينصرونه ويتعصبون له ويخطئون من

---

[1] الأنعام : ١٥٣ .

[2] الأنعام : ١٦١ .

[3] الشورى : ١٦١ .

[4] يونس .

يخالفه ، ويرمون المخالفين بالجهل والضلال أ والكفر والابتداع ، وذلك سبب لإضاعة الدين بترك طلب الحق المترل فيه .

والحق لا يمكن ان يكون محبوسا على طائفة دون طائفة ، ولا مقصورا على فئة دون فئة ، ولكنه معروض على كل ذى فطرة سليمة ونفس مستقيمة ، ومن أدركه فقد اهتدى وقد صار مكلفا بدعوة غيره إلى الهداية ، وهذا الحق القديم لا خلاف عليه ، ولأنه رسالة الانبياء ودعوة الصالحين ، ولأنه هو الفطرة النقية الخالصة فى نفس كل إنسان ، فإذا احتجب فى النفوس فذلك لأن الناس قد تجاهلوه أو اهملوه كالمصابيح تكون فى ايدينا فتنير لنا الطريق ، فإذا تركنا الغبار يتراكم عليها فقد حبسنا نورها بأيدينا وتعثرت بنا الخطوات فى الظلمات .

وقد روى أحمد والترمذى والنسائى : عن النواس بن سمعان مرفوعا : "" ضرب الله مثلا صراطا مستقيما ، وعن جنبتى الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى باب الصراط داع يقول : أيها الناس هلم ادخلوا الصراط المستقيم جميعا ولا تفرقوا ، وداع يدعو من جوف الصراط ، فإذا أراد الإنسان ان يفتح شيئا من تلك الأبواب قال له : ويحك لا تفتحه فإنك أن تفتحه تلجه فالصراط الإسلام ، والسوران حدود الله ، والأبواب المفتحة محارم الله ، وذلك الداعى على رأس الصراط كتاب الله ، والداعى من فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مسلم "".

ولعل هذا الواعظ هو ما يعبر عنه الناس بالوجدان والضمير والإستقامة على هذا الصراط استقامة على امر الله عز وجل ، وسلوك لطريق الله الذى لا طريق سواه فهو صراط مستقيم ، لايلتوى ولا يتعرج ، فقد قام عليه دين الله كافة وجاء به الإسلام مصدقا للأديان ومهيمنا عليها ، فهو يجمع بين صحة العقيدة فى الله ، وسلامة النظم الموضوعة للحياة وبين هذين (العقيدة ونظم لحياة) رباط محكم وعقدة وثيقة لا تنفصل ، فأى نظام للحياة بفصل نفسه عن العقيدة فى الله فهو نظام مبثور لا يستطيع ان يحقق الغاية النبيلة اتى هى رسالة الإنسان على الأرض كما ارادها الله ، لأن أساس كل

تشريع انسانى يجب ان يكون قائما على ضمائر لا تستمد سموها ونقاءها الا باتصالها بالله الخالق ، والا على أساس من الدين الخالص ، فهى إذن مرتكزة على أصول ثابتة لا تزعزعها الأنواء ولا تميل مع الاهواء ، وذلك هو سر التعقيب على الآية بقوله تعالى ﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ والتقوى مراقبة الله وإخلاص العبادة له دون سواه ، والإلتزام بصراط المستقيم حتى لا تتفرق بنا السبل عنه ، وهذه السبل هى مفترق الطريق بين الشريعة الواضحة المستقيمة وبين غيرها من الاتجاهات المتعددة التى تصنعها اهواء البشر سواء كان ذلك شركا تمزقه أهواء الوثنية شيعا وفرقا وتقاليد ، أم كان ملا ونحلا تصنعها أفهام (الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا) أم كان أفكارا مستوردة وبدعا مستولية على بعض المنتسبين إلى الإسلام ... وتلك وغيرها هى من (السبل) التى يحذر منها القرآن ، ويدعو المسلمين إلى الاعتصام عنها بالصراط المستقيم .

ولما كان اتباع الصراط المستقيم هو الرباط الذى يجمع المسلمين فلا ينحرفون ويوحد طريقهم فلا يضلون ، كان اتباع السبل المتفرقة هو البعد عن سبيل الله ، وكان هو الثغرة التى ينفذ منه الضعف إلى كيان الأمة والريح التى تهب على المسلمين فتترك وحدتهم نهبا وأفئدتهم هواء .

ولقد اصيب المسلمون فى فترات ضعفهم ، بسرعة الاستهواء ، فاتبعوا غيرهم شبرا بشبر ، وذراعا بذراع ، فحل بهم ما حل من الضعف والتفكك والانهيار ، ولم يردعهم عن ذلك ما ورد من التحذير منه فى كتاب الله تعالى وأحاديث الرسول ﷺ .

ولقد روى عن ابن عباس فى قوله تعالى ﴿ فاتبعوه ولا تتبعوا السبل ﴾ أن الله أمر المؤمنين بالتزام الجماعة ، والاعتصام بالطريق المستقيم ، ونهاهم عن الاختلاف والفرقة ، واخبرهم انه انما هلك من كان قبلهم بالخصومات والتفرق وتشتت الاهواء مع أن الله قد دعاهم إلى الاتحاد والاعتصام بحبله فى مثل قوله ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تتفرقوا ﴾ [1] .

---

[1] آل عمران : ١٠٣ .

ولقد ورد فى الحديث الصحيح عن ابن مسعود : "" أن كتاب الله هو حبله الممدود من السماء إلى الأرض ، فمن اعتصم به كان آخذا بالإسلام ، والمسلمون مأمورون بأن يجعلوا اجتماعهم ووحدتهم بهذا الكتاب : عليه يجتمعون ، وبه يتحدون ، ومنه يستمدون المنهج ويسلكون الطريق المستقيم .

وقد أمرنا بالتزام هذا الطريق وحده حتى لا نكون من ﴿ الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ﴾ فمن مظاهر هذا التفريق : اتباع سبيل غير سبيل الله الذى يرسمه كتابه ، واحداث المذاهب المتفرقة والشيع المختلفة فى الدين الواحد والتعصب لها دون دليل والعصبية الجاهلية التى تمزق شمل الأمة ولقد ورد فى النهى عن هذه العصبية أحاديث كثيرة منها قوله صلى الله عليه وسلم : "" أبغض الناس إلى الله ثلاثة : ملحد فى الحرام ، ومبتغ فى الإسلام سنة الجاهلية ، ومطلب دم امرئ مسلم بغير حق يهريق دمه "[1]

ولقد اعتصمت بعض الأمم غير المسلمة بجنسيات قائمة على عصبية كعصبية الجاهلية ، واقتفى أثرهم بعض المسلمين فحاولوا أن يجعلوا الوطن الإسلامى أوطانا تنتمى إلى جنسيات وطنية وحضارات قديمة ، وليس الأمر كذلك ، فإن الاسلام يدعو إلى اتحاد أبناء الوطن الواحد ، وان كانت بينهم جنسيات قديمة مختلفة ، ويأمر بالاعتصام بحبل واحد هو حبل الله الذى يسلك القوميات فى قومية واحدة والجنسيات فى جنسية واحدة ، وبذلك تتحقق الأخوة فى الله على اساس من المحبة لا على أساس من العصبية .

ولقد أشرنا إلى تذييل آية الأمر باتباع الصراط المستقيم بقوله تعالى ﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ .

لأن الأمر باتباع صراط الحق المستقيم ، والنهى عن اتباع السبل الضالة المعوجة ، هو خلاصة الوصايا النافعة الموصلة إلى السعادة فى الدنيا والآخرة ، وهو التقوى التى أمر المسلمون بها فى كل أحوالهم من عبادات ومعاملات وآداب وقتال وسنن اجتماع وطعام وشراب .

---

[1] رواه البخارى من حديث ابن عباس .

وفى الصلوات اليومية للمسلم ، يردد دعاء فى كل ركعة هذا الدعاء ضمن سورة . من سور القرآن ولكنها " أم القرآن " أو " أم الكتاب " ، ولا صلاة للمسلم إذا لم يقرأها .. فهو يدعو ربه "" اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين "" .

وهو بهذا الدعاء يطلب من الله هداية الوجدان النظرى ، وهداية الحواس والمشاعر وهداية العقل والتفكير وهداية هى رأس هذه الهدايات وملاكها ، وهى الهداية إلى الدين واتباع الصراط المستقيم ، وهى أيضا تهب كل موجود قوام وجوده ، وتجعل لحياته سببا متصلا بالسماء وامتدادا خالدا فلا تنتهى بإنتهاء حياته على هذه الأرض .

ولما كان الإنسان معرضا للخطأ على هذه الأرض ، ولما كانت الشهوات تحيط به و الشعاب تفترق أمام ناظريه ، فهو يحتاج إلى قوة أكبر من قوته ، وعون اعلا من طاقته ومدد الهى يطلبه بقوله (اهدنا الصراط المستقيم) أى دلنا يا رب على الطريق الواضح الذى لا زيغ معه ، المستقيم الذى لا التواء فيه .. ثم اهدنا إلى سلوك هذا الطريق والتزام السير فيه ، لأن حاجتنا اليه اشد من حاجتنا إلى كل شئ سواه فهو مستقيم لا ينحرف عن الغاية بل يؤدى اليها ، وغاية المسلمين ان يرضوا الله وهم فى الدنيا وأن يحصلوا على ثوابه يوم الحساب ، فهم هنا يسألون الله ان يهديهم الصراط المستقيم ، وفى الآية الأخرى يؤمرون بأن يتبعوا الصراط المستقيم ، ولا تعارض بين السؤال والأمر ، فإن الله سبحانه وتعالى بدلنا على الطريق بفضله وعلمه ، ونحن له ملتزمون هذا الطريق بطاعتنا لله واتباعنا لصراطه المستقيم ، هو سبحانه يهدينا إلى الصواب ، ونحن نميل إلى الصواب بسلوكنا أو نحيد عنه بأعمالنا ، والله عز وجل يقول ﴿ وهديناه النجدين ﴾ [1] أى دللناه على الطريقين : طريق الخير وطريق الشر ... ثم يختار سلوك أحد الطريقين ومنه أيضا قوله تعالى :

---

[1] البلد : ١٠ .

﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ [1] .

فقد دلهم الله تعالى على طريقى الخير والشر ، فسلكوا سبيل الشر المعبر عنه بالعمى ، وتركوا طريق الخير المعبر عنه بالهدى وذلك هو الضلال المبين .

فهداية الله للمؤمنين هنا هى بيان الطريق لهم وايقافهم على رأس الطريقين . المهلك والمنجى مع بيان ما يؤدى اليه كل منهما وذلك تفضل من الله على عباده بدلالتهم على كل من الطريقين .

أما الهداية فى قوله تعالى ﴿ أولئك الذى هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ [2] . فهى إعانة المؤمنين وتوفيقهم للسير فى الطريق المستقيم بعد أن صدقت نيتهم وتوافر اتجاههم لسلوك هذا الطريق .

وأما السبل التى ينهانا الله عن اتباعها فى قوله ﴿ ولا تتبعوا السبل ﴾ فهى سبل غير المؤمنين ، أولئك هم المغضوب عليهم وهم الضالون ، لأنهم فرقوا دين الله ورفضوا شريعته ، وجعلوا الحق الواحد الذى لا يتعدد شعابا متعرجة وفجاجا ملتوية لا تؤدى إلى الإيمان ولا تصل إلى غاية المؤمنين .

وهؤلاء هم الذين خرجوا عن الحق بعد علمهم به ، وبلغهم شرع الله ودينه فرفضوه و لم يتقبلوه وهم ابلغ فى الجحود من الذين لم يعرفوا الحق أصلا فرفضوه عن جهل لا عن عناد ، وفى أمثال هؤلاء المعاندين يقول الله عز وجل ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾ [3] .

وما دام طريق الحق واحدا لا يتعدد وان تعددت حوله الشعاب واختلفت حوله الدروب ، وما دامت كلمة الله واضحة مستقيمة وان زاغت المذاهب والتوت الآراء ..

---

[1] فصلت : ١٧ .

[2] الأنعام : ٩٠ .

[3] البقرة : ٨٩ .

فإنه مطلوب من الذين ساروا فى طريق الحق ان يثبتوا عليه وان طال بهم السير وأدمت اقدامهم أشواك الطريق ، فإنه هو الطريق الموصل إلى الله والمؤدى إلى الجنة ، وهو الذى يثبت الله نبيه عليه بقوله ﴿ وانك لتهدى إلى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ [1] .

والذين اتبعوا كلمة الله فجعلوها منهجا لحياتهم على الأرض واساسا لتعاملهم مع الناس ، ووسيلة تصلهم بالله عز وجل . ﴿ أولئك هم المؤمنون ﴾ وعليهم ان يثبتوا مع كلمة الله ، وان يستقيموا على طريق الإيمان ، ﴿ ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى انفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم ﴾ [2] .

---

[1] الشورى : ٥٢ - ٥٣ .

(٢) حم سجدة : ٤١ - ٣٠ - ٣١ .